عمـــارة الأرض

فـــي ضـــوء القـــرآن الكـــريم

Land architecture in the light of the Holy Quran

إعداد

د/ صبري منصور عبد العزيز صيام

الأستاذ المساعد (المشارك) في التفسير وعلوم القرآن الكريم بجامعتي الأزهر وتبوك

عمارة الأرض في ضوء القرآن الكريم.

صبري منصور عبد العزيز محمود صيام

قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة – جامعة الأزهر، وكلية التربية والآداب– جامعة تبوك.

البريد الإلكتروني: sabrymahmoud.4@azhar.edu.eg

الملخص:

خلق الله الإنسان لغاية اصطفاه لها، هي عمارة الأرض بمفهومها الشامل للعمارة المعنوية والمادية، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[هود: ٦١]، فقد هيأ الله له من الأسباب المعنوية والمادية للقيام بها، حيث سخر له الكون كله مِنْ حوله، وفطره على خلالٍ ارتبطت بها عمارة الأرض ارتباط الماء بالعود الأخضر، وما توفرت تلك الخلال في مخلوق إلا في الإنسان، فلا يمكن لمخلوق أن يعمر الأرض إلا الإنسان، ولا يمكن للإنسان أن يحيا حياة سوية من غير أن يعمر الأرضَ، وآتاه من الهدى ما رسم له المنهج الأمثل لتحقيق تلك الغاية منذ نشأته إلى قيام الساعة، فما كانت عمارة الإنسان للأرض نتيجة تخبط عشوائي أو ضربا من الصدفة العماء كما زعم العلمانيون، وإنما دارت حولها دعوات الأنبياء والرسل عليهم السلام.

- **منهج الدراسة:** اتبعت ثلاثة من مناهج البحث العلمي، هي: الاستقرائي ، والتحليلي، والاستنباطي.
- **نتائج البحث:** تبين من خلاله أن عمارة الأرض بمفهومها الشامل للعمارة المعنوية والمادية هي المقصد الأسنى لخلق الإنسان وتسخير الكون له، ولنزول القرآن الكريم، وأن الإنسان قد خصه الله بفطرةٍ، وهيأ له من الأسباب الروحية والغريزية ما مكنه من تحقيق المقصد من وجوده.

الكلمات المفتاحية: عمارة ، الأرض ، فطرة الإنسان ، تسخير ، محاور القرآن ، مقصد ، في ضوء ، القرآن الكريم.

Land architecture in the light of the Holy Quran

Sabri Mansour Abdel Aziz Mahmoud Siam
Department of Interpretation and Sciences of the Holy Qur'an, College of Islamic and Arab Studies for Boys in Cairo - Al-Azhar University, and College of Education and Arts - University of Tabuk..
Email: sabrymahmoud.4@azhar.edu.eg

Abstract

God created man for a purpose for which He chose him, which is the building of the earth in its comprehensive concept of moral and material building. The Almighty said: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [Hud: 61], God has prepared for him the moral and material reasons to do it, as he subjugated the entire universe around him to him, and created him through through the building of the earth with which the water is linked to the green tree, and those defects are not available in a creature except in man, so a creature cannot The earth is inhabited except by man, and it is not possible for man to live a normal life without inhabiting the earth, and he was given guidance as he drew the best approach to achieve that goal from his inception until the advent of the Hour, so man's building of the earth was not the result of random floundering or a kind of blind coincidence as he claimed Secularists, but the calls of the prophets and messengers, peace be upon them, revolved around it.

The research was based on three scientific research methods: inductive, analytical, and deductive. Through it, it became clear that the building of the earth in its comprehensive concept of moral and material architecture is the ultimate goal for the creation of man and the harnessing of the universe for him, and for the revelation of the Noble Qur'an, and that man has been singled out by God with an instinct that is compatible with and provided him with spiritual and instinctive reasons that enabled him to achieve the purpose of his existence.

Keywords: Architecture , Land , In The Light Of , The Holy Quran.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فإن الله تعالى ما خلق خلقا عبثا، وما تركه سدى، ولكن كل شيء لغاية قدرها، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[١]، ويسر له السُّبُل لتحقيقها، قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾[٢].

فخلق الإنسانَ لمقصد أسنى، اصطفاه له دون سائر خلقه، ألا وهو عمارة الأرض بمفهومها الشامل القائمِ على الإيمانِ بالله والخضوعِ لأمره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[٤]، وقال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٥].

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٣٠.

(٤) سورة هود، من الآية: ٦١.

(٥) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

وهيأ له من الأسباب القدرية والشرعية ما به يتحقق ذلك المقصد؛ فقد فطره على خصائص وغرائز روحية وبدنية أهَّلته للقيام بها، ما اجتمعت تلك الخصائص إلا فيه وحده دون غيره من سائر المخلوقات، وإن شاركه غيره في بعضها، وذلك هو المراد بـ"أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾(١).

وسخر له الكون كله، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(٣).

وآتاه من الهدي ما زكي به فطرته، وبيَّن له فيه سنته، وقص عليه من أخبار الأمم ما أنار به دربه، وشرع له فيه من الأحكام ما يحقق بها غايته، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾(٤)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(٥)، وقال جل شأنه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(٦).

(١) سورة التين، الآية: ٤.
(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢٩.
(٣) سورة الجاثية، من الآية: ١٣.
(٤) سورة البقرة، من الآية: ٣٨.
(٥) سورة الإسراء، من الآية: ١٣.
(٦) سورة الأنعام، من الآية: ١٥٣.

فارتبطت عمارة الإنسان للأرض بهذه الأسباب القدرية والشرعية ارتباط الروح بالبدن، والماء بالعود الأخضر، فلا يمكن للإنسان أن يعيش من غير أن يعمر الأرض، ولا يمكن للأرض أن تعمر بدون هذه الأسباب.

فعمارة الأرض –بمفهومها الحقيقي والشامل للعمارة المعنوية والمادية– مرتبط بالانصياع لهذه الأسباب وتحقيق التوافق والتوازن بينها، وإن إهمال بعضها أو التقصير فيها لخرقٌ في تحقيق المقصد من وجود الإنسان ونزول القرآن وتسخير الكون.

فالانقياد للفطرة من غير تزكية لها بالتمسك بهدى الله سيرٌ حتمي إلى سبيل الهلاك في الدنيا والبوار في الآخرة، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة، وليس أدل على ذلك مما وصلت إليه الحضارة الغربية التي نشأت في ظل المادية المغرقة، فأنتجت –مع ما بلغت إليه في تقدمها من نفع كبير للإنسانية– ما يهدد الوجود البشري على وجه هذه البسيطة.

وعلى قدر ما يقع الإنسان فيه من التقصير في قراءة الكون المسخر له، واستخراجِ سننه، ومعرفة خصائصه، والعملِ على تطويره في الارتقاء بحياة الإنسان يكون الإلقاءُ بالبشريةِ في هوة التخلف والشقاء.

أهداف البحث.

قصدت من خلال هذا البحث –والله من وراء القصد– بيان ما يأتي:

١– عالمية الدين الإسلامي، وصلاحيته لكل زمان ومكان، حيث خاطب الإنسان حيث هو إنسان مهما اختلفت توجهاته أو تعددت ثقافاته؛ إذ هو دين الفطرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾(١).

(١) سورة الروم، من الآية: ٣٠.

٢- أن عمـارة الأرض بمفهومهـا الشـامل للعمـارة المعنويـة والماديـة هـي المقصد من نزول القرآن الكريم وخلق الإنسان وتسخير الكون.

٣- إثبات أن الله قد هيأ للإنسان من الأسباب القدرية والشرعية ما تتحقق بها عمارة الأرض.

٤- أن الجنوح بالفطرة إنما هو خرق لتحقيق المقصد من وجود الإنسان.

٥- أن القرآن الكريم قد نقل لنا تجارب الأمم في تحقيق عمارة الأرض.

منهج البحث.

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يقوم على ثلاثة من مناهج البحث العلمي:

أولها: المنهج الاستقرائي ، وذلك في جمع الآيات الكريمة التي اندرجت تحتها موضوعات البحث ومفرداته.

ثانيها: المنهج التحليلي، وذلك في تحليل ما احتيج إلى تحليله من الآيات الكريمة الواردة في البحث.

ثالثها: المنهج الاستنباطي، وذلك في استنباط المقاصد والهدايات القرآنية من الآيات الكريمة الواردة في البحث.

الدراسات السابقة.

وقفت على بعض الدراسات القرآنية الواردة تحت اسم "الحضارة"، أو "العمارة"، ومن أهمها:

- أسس البناء الحضاري من المنظور القرآني- دراسة موضوعية في ضوء قصتي داود وسليمان عليهما السلام، للباحث زمخشري بن حسب الله طيب، وهي بحث تكميلي لنيل درجة ماجستير بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

- البناء الحضاري في القصص القرآني للباحثة إيمان عبد اللطيف شلبي، وهي بحث تكميلي لنيل درجة الدكتوراه بالجامعة الأردنية، سنة: ٢٠١٢م.

- مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند المعاصرين للدكتور ماهر حصوة، بحث نشر بمجلة الفكر الإسلامي المعاصر، العدد ٨٩، سنة: ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.

وهذه الدراسات لم تتعرض لخصائص الإنسان وضرورة تهذيبها بالوحي الإلهي، وعلاقة ذلك بعمارة الأرض.

خطة البحث.

اقتضت طبيعة هذا البحث تقسيمه إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

المقدمة: دار الحديث فيها حول أهمية هذا البحث، وأهدافه، ومنهجه، والدراسات السابقة له.

المبحث الأول: عمارة الأرض: مفهومها، وترتيبها بين المقاصد القرآنية.

وفيه: تمهيد، ومطلبان:

التمهيد: أي المصطلحين أولى: مصطلح الحضارة أم مصطلح العمارة؟

المطلب الأول: تعريف عمارة الأرض لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: عمارة الأرض مقصد من مقاصد القرآن الكريم العليا.

المبحث الثاني: معالم منهج القرآن الكريم في عمارة الأرض.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: بيان القرآن لأبرز خصائص الإنسان وغرائزه المؤهلة له لعمارة الأرض.

المطلب الثاني: تأكيد القرآن الكريم على تسخير الكون للإنسان.

وفيه معلمان:

المعلم الأول: عنايته بالحديث عن الكون.

المعلم الثاني: عنايته ببيان المقاصد من الحديث عن الكون.

المطلب الثالث: بيان القرآن للمنهج الرباني المنظم لسلوك الإنسان في عمارة الأرض.

وفيه ثلاثة معالم:

المعلم الأول: تزكية النفس.

المعلم الثاني: تنظيم السلوك الإنساني الشامل لسلوك الفرد والمجتمع.

المعلم الثالث: ارتباط المنهج القرآني بالدوافع والزواجر.

الخاتمة، جاءت مشتملة على أهم نتائج البحث.

ثبت بأسماء المصادر والمراجع.

هذا، وإذا كنت قد وفقت –وهو المأمول– فمن فضل الله –تعالى– عليَّ وتوفيقه، وإن كانت الأخرى –مستعيذا بالله منها– فمن نفسي ومن الشيطان، والله تعالى ورسوله ﷺ منه براء.

واللهَ أرجو أن يمن على بحثي بالقبول، وأن يكتب لي به حسن المثوبة والأجر، وأن يجعله في موازين حسنات والدِي يوم يجمعني الله به في ظله يوم القيامة، وأن يجزي عني والدتي ومشايخي ومن له حق علي خير الجزاء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

****

المبحث الأول

عمـارة الأرض

مفهومها، وترتيبها بين المقاصد القرآنية

تمهيـد: أي المصـطلحين أولـى: مصـطلح الحضـارة أم مصـطلح العمارة؟

درج كثير من الباحثين والكتَّاب المسلمين على تسمية مظاهر التقدم والرقي المعنوي والمادي وتطورها التي نشأت في رحم البعثة المحمدية، واستمدت جذورها من كتابه المنزل، واستنارت بتعاليمه، وتميزت بخصائصه، وعُدَّت من مقاصده العليا –درجوا على تسميتها الحضارةَ الإسلامية.

وقد اعتمدوا في ذلك على معنى الحضارة في اللغة، فالحضارة لغةً من "حضر"، وهي الإقامة في المدن والقرى دون البادية[1]، إذ الغالب أن الإقامة في الحضر تتسم بالاستقرار، فتثمر النظمَ التي توثق الروابط بين أبناء المجتمع، وتتلاقح الأفكار، وتتطور فيها الثقافات، وينشأ عنها البناء والحراثة والصناعة.

وأرى أن الأجدر والأوجه –من حيث التسمية– أن يطلق على تلك المظاهر اسم عمارة لا حضارة؛ وذلك لعدة أسباب، أهمها:

السبب الأول: أنه لم ترد مادة "حضر" في القرآن الكريم بمعنى الإقامة في القرى والمدن، أو بمعنى التقدم أو الارتقاء المادي أو المعنوي، وإنما جاءت بمعنى المجيء، والشهود، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ

(١) لسان العرب (١٩٧/٤)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادى (٢/ ٤٧٤)، مادة: حضر.

يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾[1]، وقـــال ســـبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾[2][3].

أما العمارة فقد وردت في ست آيات، دارت فيهن بين العمارة المادية والمعنوية:

ففي ثلاث آيات منهن جاءت بمعنى العمارة المعنوية، المتمثلة في عبادة الله وإقامة أركان دينه وتعظيم شعائره:

الأولى والثانية: في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٣٣.

(٢) سورة الأحقاف، من الآية: ٢٩.

(٣) ذهب الدكتور نصر محمد عارف إلى أن مادة "حضر" قد وردت في القرآن الكريم بالمعنى الاصطلاحي للحضارة، وتقرير ذلك: أن "حضر" جاءت في القرآن بمعنى "شهد"، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [سورة البقرة، من الآية: ١٨٠]، ثم إن الشهودَ جاء في القرآن الكريم مستوفيا أركان البناء الحضاري، ومن ثَمَّ ساغ مجيء الحضارة بمعناها الاصطلاحي في الاستعمال القرآني. (الحضارة، الثقافة، المدنية- دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم ص(٥٧: ٥٩)).

ولا يخفى ما في هذا الرأي من تكلف غير مقبول

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ١٧، ١٨.

وعمارة المساجد إنما تكون بإقام الصلاة والذكر والدعاء ودرس العلم، وتخصيص "المساجد" بالذكر لا مفهوم له؛ لشمول العمارةِ الأرضَ كلَّها، لقول النبي ﷺ: «**وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل**»[(١)]، وإنما خصت بالذكر؛ لكونها خير البقاع، وأنها مخصصة لذلك الغرض، وأنها مركز للتوجيه الفكري البنّاء وربط المجتمع بوثائق الإيمان، وذلك ما نفاه الله عن المشركين، وأثبته للمؤمنين.

الثالثة: قوله سبحانه: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤﴾ [(٢)]. وقد اختلف في المراد بالبيت المعمور:

فقيل: هو المسجد الحرام؛ كما هو مروي عن الحسن[(٣)] فهو معمور بالعبادة لله، وتعظيم شعائر دينه؛ إذ لا يخلو من الطائفين، والعاكفين، والركع السجود.

وقيل: هو بيت في السماء بإزاء الكعبة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون إلى الله ويطوفون به، إذا خرجوا، لا يعودون فيه أبدا، ويصلي إليه أهل السماء؛ وهو مروي عن علي وابن عباس ﷺ ومجاهد وقتادة وغيرهم[(٤)].

وأيا ما كان المراد به، فإن البيت سمي معمورا؛ لأن زواره من المكلَّفين يعمرونه بالركوع والسجود والطواف والذكر.

---

(١) متفق عليه: جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٥٨)، كتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷺ: "جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا"، حديث رقم (٤٣٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣٧٠/١)، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، حديث رقم (٥٢٣)، عن أبي هريرة ﷺ، واللفظ للبخاري.

(٢) سورة الطور، الآية: ٤.

(٣) عزاه إليه الماوردي في النكت والعيون (٣٧٨/٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان (٤٥٥/٢٢، ٤٥٦).

وفي اثنتين منهن جاءت بمعنى العمارة المادية المتمثلة في البناء والتشييد وغيره:

الأولـــى: فـي قولـه تعـالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [1]، والآية الكريمة جاءت للمفاضلة بين المؤمنين الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وبين المشركين الذين قاموا على سقاية الحجيج وعمارة البيت الحرام، فإنها لا تُقبَل عند الله منهم ما قاموا على شركهم[2].

ولا يراد بها قطعا عمارته بالصلاة والذكر وسائر مظاهر التعبد لله، وهو المنفي عنهم في الآية السابقة: "مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ"، وإنما المراد به رم ما استرم منها، وقمها، وتنظيفها، وتنويرها بالمصابيح والقيام بما يصلح شأنها.

الثانية: في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [3]، وإنما كانت عمارة الأمم السابقة للأرض –كعاد وثمود وقوم فرعون– بفلاحتها وتشييد البناء عليها والأخذ بمظاهر التقدم المادي فيها، فمعنى: "وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ

(١) سورة التوبة، الآية: ١٩.

(٢) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (١٢/١٦).

(٣) سورة الروم، من الآية: ٩.

وَعَمَرُوهَآ"؛ أي: حرثوها، وشيدوا فيها المباني، وأنشأوا المصانع، وأخذوا بمظاهر الارتقاء المادي أسباب القوة والمنعة.

فقد سمى الله تعالى مظاهر التقدم المادي التي شيدتها البشرية في قرونها المديدة عمارةً، ولم يسمها حضارة.

وواحدة منهن تحتمل معنى العمارة المادية والمعنوية معا، وهي قوله تعالى –على لسان نبيه صالح عليه السلام مخاطبا قومه ثمود–: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]، ومعنى "وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"؛ أي: أمركم بعمارة الأرض[2]، وإنما جاء نبي الله صالح عليه السلام يأمرهم بعبادة الله وحده.

وتحتمل أن تكون بمعنى العمارة المادية، والمعنى: أقدركم عليها، بما فطركم عليه من صفات مؤهلة لكم للقيام بتحقيق ذلك، وهيأ لكم أسبابها.

فمفهوم العمارة شامل للمظاهر المعنوية والمادية، وهو الصورة التي تتحقق بها الخلافة في الأرض.

السبب الثاني: أن عمارة الأرض لا يمكن تحقيقها إلا في ظل وحي رباني، يحقق للإنسان إنسانيته، وينظم حياته في كافة جوانبها الجسدية والروحية، الفردية والأسرية والاجتماعية، وذلك أن الله تعالى أمر بعمارة الأرض، فقال: "وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا".

أما الحضارة فيمكن أن تنشأ في ظل الوحي السماوي، فتحقق حينئذ للإنسان إنسانيته، وتتسم بالتوازن بين المادية والروحية، فتكون؛ أي: الحضارة، حينئذٍ بمعنى العمارة، وهو الذي درج عليه الكُتّاب المسلمون.

---

(١) سورة هود، من الآية: ٦١.

(٢) روح البيان لأبي الفداء إسماعيل حقي (١٥٤/٤).

ويمكن أن تنشأ أيضا بعيدة عن الوحي، فتتغلب عليها النزعة المادية، ويصير الإنسان في ظلها عبدا لهواه، منقادا لغرائزه الحيوانية، من غير مراعاة للقيم الروحية، فلا يزداد في ظلها إلا شقاء وعناء، وهذا ما حدث مع الأمم السابقة التي نشأت حضارتها بعيدة عن الوحي الإلهي، وكانت أيضا عرضة لأخذ الله إياهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ ﴾[1]، وقال جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[2]، ولولا أن الله تعالى رفع عن الكافرين عذاب الاستئصال بعد بعثة رسوله صلى الله عليه وسلم لاستأصل أمما بأسرها؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3].

السبب الثالث: أنه إذا كانت مظاهر الرقي مرتبطة بالإقامة في الحضر، فذلك يوهم أن تحقيق ذلك المقصد القرآني مكلف به الحضريون وحدهم دون أهل البادية، وهو خلاف ما جاء في القرآن الكريم، فقد وصف أهل مكة بأنهم عمروا الأرض، لكنها دون عمارة من سبقهم كما وكيفا، حيث كان من قبلهم أطول منهم أعمارا، وأقوى منهم أجساما، وأكثر تحصيلا لأسباب المعاش، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ

(١) سورة يونس، من الآية: ١٣.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾[١]، فقوله: "وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا"، وصف لأهل مكة بأنهم عمروا الأرض، لكنها دون عمارة من سبقهم كما وكيفا، ومعروف أن أهل مكة يسكنون في واد غير ذي زرع[٢].

وكذلك عموم أحكام القرآن الكريم ومقاصده التي خوطب بها الإنسان حيث حَلَّ في بادية أو حاضرة.

* * *

(١) سورة الروم، من الآية: ٩.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٢٤٨/٤)، وروح البيان (١٠/٧).

المطلب الأول: تعريف عمارة الأرض.

أولاً: تعريف العمارة في اللغة.

العِمارة: ضد الخراب، يقال: عمَرْتُ الأرض أعمُرها، عِمارة، فهي مكان عامر، نحو "ماء دافق"، وهي معمورة، والعمارة كذلك: ما يعمر به المكان، والعُمر: اسم لمدة عمارة البدن بالروح(١).

ثانيا: تعريف العمارة في الاصطلاح.

ارتبط مصطلح العمارة في الدراسات المدنية الحديثة بالبناء والتشييد، فعرف علماء الهندسة المدنية "العمارة الإسلامية" بأنها: مجموعة المباني والأماكن التي يشيدها المسلمون باتباع مبادئ الشريعة الإسلامية والأعراف المحلية واستخدام مواد البناء المتوفرة ... دون تدخل السلطة إلا في حالات الاختلاف بين الملاك(٢).

وهو تعريف خاص بالهندسة المعمارية التي روعي فيها توافقها لمبادئ الشريعة الإسلامية في البناء والتشييد، فلا يشمل من مظاهر التعبد لله تعالى أو المظاهر المادية التي تعددت جوانبها فشملت كل نواتج تفاعل الإنسان مع الطبيعة حوله إلا القدرَ الذي ارتبط به البناء فقط.

ويمكن لي تعريفها من خلال ما سبق بيانه من الاستعمال القرآني للفظ العمارة –وهو المفتاح لتعريفها في الاصطلاح– بأنها: **المظاهر المعنوية والمادية التي ترتقي بالإنسان إلى درجة كمال العبودية لله تعالى تحقيقا للمقصد من الوجود الإنساني.**

---

(١) الصحاح للجوهري ص(٧٥٧/٢)، والمفردات في غريب القرآن ص(٥٨٦)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ص(٤٥٥)، مادة: عمر.

(٢) القيم الإنسانية في العمارة الإسلامية للباحث مصطفى عبد الحميد محمد ص(٢٣).

ومن خلال هذا التعريف يتضح أن للعمارة جانبين رئيسين:

الأول: جانب معنوي، يتمثل في الامتثال لهدى الله تعالى الذي أحاط به الإنسان منذ نشأته إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (١)، وقال سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ (٢)، وهو هدى عام، يشمل الجانب العقدي، والسلوكي، والأخلاقي، على مستوى الفرد والجماعة (الأمة)، سواء أكان ذلك الهدى منصوصا عليه، أم كان مستنبطا من النصوص الصحيحة حسب قواعد الاستنباط.

والإنسان في هذا الجانب يمارس دور المتبِّع لأمر سيده لا يعتديه؛ لأنه أعلم بما يصلحه، فلا يتجاوز ما آتاه الله من الهدى.

الثاني: جانب مادي، يتمثل في مدى تأثير الإنسان –بما فُطِر عليه من الخصائص وجُبِل عليه من الغرائز– فيما حوله من المخلوقات المسخرة له، وتطويعها لما فيه المصلحة له، وما اقتضاه من تلاقح فكري، وتطور علمي وتوارث ثقافي، مما يتطلبه وجوده من بقاء نوعه، وحفظ بدنه، وتيسير سبل العيش، والأخذ بأسباب التقدم، بما يتوافق في ذلك كله مع فطرة النفس وما جُبلت عليه من غير إفراط أو تفريط.

والإنسان في هذا الجانب يمارس دور الخليفة في هذا الكون الذي خُلِق له وطُوِّع لأجله، وهي المنزلة التي بوأه الله تعالى إياها بين الخلائق، قال

(١) سورة البقرة، من الآية: ٣٨.

(٢) سورة طه، من الآية: ١٢٣.

تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (١)، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (٢)، وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (٣)، مُظهِرا بذلك وجه الحكمة الربانية في اختياره خليفةً دون غيره من المخلوقات.

وهذا الجانب الثاني مبني على الأول، فلا يمكن أن يتحقق بالصورة التي تعود على الإنسان بما ينفعه إلا إذا تحقق أولا الجانب المعنوي، وإن بدا أن لدى الإنسان قدرة على تحقيق الجانب المادي دون أن يبنيه على الجانب التعبدي، فإنما هو كسراب لا يروي ظمأ، بل ضره أقرب من نفعه(٤).

وبقدر تحقيق الإنسان لهذين الأمرين: الجانب المعنوي والجانب المادي، تتحقق عبوديته لله تعالى، فمن تمسك بهدى الله وامتثل له وعظم شعائره، لكنه ألمَّ بتقصير أو إهمال في الجانب المادي للحياة، فإنه يكون مقصرا في

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٩.

(٢) سورة الجاثية، من الآية: ١٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٤) ما قاله بعض الباحثين: "إن التعمير المادي يسير مع التعمير المعنوي في آن واحد، لا ينقطع أحدهما عن الآخر" (إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي للدكتور زياد خليل الدماغين ص(٢٧).

فإنه لم يصب في ذلك النجعة، فإن القصص القرآني والواقع شاهدان على ثمة حضارات عمرت الأرضَ تعميرا ماديا بعيدا عن التعمير المعنوي، ولم تؤسس على الإيمان بالله واتباع منهجه، فما كانت عمارتهم إلا اتباعا للهوى واستذلالا للإنسانية وإلقاء بها في مرتع البهيمية.

تحقيق عبوديته لله بقدر ما وقع فيه من إهمال أو تقصير، وذلك كمن انقطع للدعاء ولم يأخذ بأسباب العيش مثلا.

ومن لم يقم بتحقيق الجانب المعنوي، وارتقى في الجانب المادي، ولو بلغ في ذلك شأوا عظيما، فإنه يكون قد أهدر عبوديته لله تعالى فصار عبدا لغرائزه وشهواته، وذلك هو المراد بـ"**الارتقاء إلى درجة كمال العبودية لله تعالى**". يقول الراغب الأصفهاني: «كل ما أوجد لفعل ما، فشرفُه بتمام وجود ذلك الفعل منه، ودناءته بفقدان ذلك الفعل منه ... فمن لم يصلح (من الناس لما خلق له) ... فالبهيمة خير منه، ولذلك قال تعالى –في ذم الذين فقدوا هذه الفضيلة–: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[(١)]، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[(٢)]»[(٣)].

والمراد بـ"المقصد من الوجود الإنساني": هو تحقيق العبودية لله تعالى، فلأجلها خُلِقت جميع الخلائق، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[(٤)]، فهي غرض عام يندرج تحته جميع الخلائق، الإنسان وغيره، ولكن تختلف صورتها من مخلوق لآخر حسب طبيعة كل مخلوق وما خُلِق له، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[(٥)]، يقول الطاهر ابن عاشور:

(١) سورة الفرقان، من الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٧٩.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص(٨٣)، بتصرف.

(٤) سورة مريم، من الآية: ٩٣.

(٥) سورة الذاريات، الآيات: ٥٦: ٥٨.

«فالمعنى أنه المستغني غنى مطلقا، فلا يحتاج إلى شيء، فلا يكون خلقه الخلق لتحصيل نفع له، ولكن لعمران الكون وإجراء نظام العمران باتباع الشريعة التي يجمعها معنى العبادة في قوله: "إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ"»[١]

فعبودية الإنسان لربه تتحقق بعمارته الأرض بمفهومها الشامل للجانب المعنوي والمادي، وهو ما خُلِق له الإنسان، وهُيّئ له فطريا، يقول الشعراوي: «كل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله»[٢].

* * *

المطلب الثاني: عمارة الأرض مقصد من مقاصد القرآن الكريم العليا.

للقرآن الكريم مقاصد كلية التفت حولها جميع سوره وآياته، وأخرى مقاصد جزئية ارتبطت بسورة منها أو بنجم من آياته، تفرعت عن المقاصد الكلية تفرع الأغصان عن الجذع، وبها تتحقق، فلا يمكن تحقيق المقاصد العامة إلا بتحقيق المقاصد الجزئية، فهي منها بمثابة الوسيلة من الغايات.

ولك أن تسمي تلك المقاصد العامة بالمقاصد الأصلية أو المقاصدِ العليا، والمقاصدَ الجزئيةَ بالمقاصد التبعيةِ أو المقاصدِ الأوليةِ أو المقاصدِ الفرعية، كما درج عليه بعض الباحثين[٣].

وعمارةُ الأرضِ هي إحدى المقاصد العليا للقرآن الكريم، التي اتفق عليها العلماء قديما وحديثا، من أمثال الإمام الراغب الأصفهاني، والطاهر ابن

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢٧).

(٢) تفسير الشعراوي (٤/ ٢٢٠٧).

(٣) ينظر: مقدمة مجلة الفكر الإسلامي المعاصر للدكتور فتحي حسن ملكاوي وآخرين ص(٦).

عاشور، ومحمد الغزالي، وعلال الفاسي، وطه جابر العلواني، وغيرهم[١]، وإن اختلفت عباراتهم حول هذا المقصد.

والسؤال: أعمارة الأرض هي المقصد الأعلى للقرآن الكريم التي تندرج تحتها جميع المقاصد، أم أن للقرآن مقاصد عليا أخرى غيرها؟

الجواب: أنه تضافرت عبارات العلماء لا سيما المحدَثين منهم على أن للقرآن العظيم مقاصد عليا أخرى غير عمارة الأرض، وما ذكروه له أهمية كبرى في صدد ما رمت الوصول إليه من وراء طرح هذا السؤال؛ لأنه يعد سبيلا إليه، فما ذكره أكثرهم في هذا الباب لا يعدو:

- **أن يكون بين المقاصد العليا التي ذكروها تداخل في المعنى،** نحو ما ذكره الراغب الأصفهاني من أن الفعل المختص بالإنسان ثلاثة أمور: عمارة الأرض، وعبادة الله، والخلافة في الأرض[٢].

وقد بيَّن كل واحدة منهن، فالعمارة تكون بتحصيل أسباب العيش، والعبادة بالامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه، والخلافة بالسياسة باستعمال مكارم الشريعة.

فمن تدبر هذه المقاصد الثلاثة وجدها متداخلة، فعمارة الأرض بجانبيها المعنوي والمادي هي ذاتها عبادة لله تعالى في مفهومها الكاملة؛ كما سبق تقريره.

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص(٨٣)، والتحرير والتنوير (٣٨/١)، ومقاصد الشريعة ومكارمها لعلال الفاسي ص(٤٥)، ومقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند المعاصرين للدكتور ماهر حصوة ص(١٦٧).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص(٨٣).

ولن تتحقق عمارة الأرض إلا باتباع هدى الله الذي آتاه، ممتثلا أوامره، مجتنبا نواهيه، كما أن القيام بحق الخلافة جزء من الامتثال لأوامر الله، وهي أساس من أسس عمارة الأرض.

فالعمارة أشمل تلك المقاصد التي ذكرها الراغب وأوسعها، فيمكن إرجاع مقصدي العبادة والخلافة إليها.

أو يكون بين المقاصد تفاصُلٌ، لكنها معا تشكل مقصدا أعلى، وذلك نحو ما قرره الشيخ محمد رشيد رضا من أن مقاصد القرآن عشرة: الإصلاح الديني لأركان الدين، وبيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل، وبيان أن الإسلام دين الفطرة السليمة والعقل والفكر والعلم والحكمة والبرهان والحجة والضمير والوجدان والحرية والاستقلال، والإصلاح الاجتماعي الإنساني والسياسي، وتقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات، وبيان حكم الإسلام السياسي الدولي، وإصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر، وإعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية، وتحرير الرقبة[1].

فهذه المقاصد جميعها يمكن إدراجها تحت مقصد واحد، وهو صلاح البشرية، جماعات وأفرادا، أمما وشعوبا.

أو يكون أحد المقصدين ارتبط بالآخر ارتباط النتيجة بالمقدمة والمسبَّب بالسبب، وذلك نحو ما ذكره الدكتور/ طه جابر العلواني من أن المقاصد القرآنية العليا ثلاثة، هي: التوحيد والتزكية والعمارة[2]، فهذه المقاصد مترتب بعضها على بعض ترتب النتيجة على المقدمة، والمسبب

(١) تفسير المنار ١١/١٧١، وما بعدها.

(٢) تطور المنهج المقاصدي عند المعاصرين للدكتور طه جابر العلواني ص(٢٣، ٢٤).

على السبب، فالتوحيد هو الحقيقة الكبرى الشاملة التي انبثقت منها كل حقيقة، فينتج عنها التزكية، وهي شرط رئيس في عمارة الأرض(١).

والذي يمكن استنباطه هو أن عمارة الأرض هي المقصد الأعلى للقرآن الكريم، وما سواه مقاصد جزئية تندرج تحت هذا المقصد أو شروط لها، وهو ما عناه الطاهر ابن عاشور بقوله: «إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم... فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية»(٢)، ثم فصل هذا المقصد العام إلى ثمانية مقاصد(٣).

وذلك المقصد هو ما صرح به أكثر من واحد، منهم: علال الفاسي، ومحمد البوطي(٤)، وهو ما أجزم به، **وذلك للأدلة التالية:**

- الاستقراء التام لدعوة جميع الأنبياء والرسل، حيث التقت دعواتهم حول الإصلاح بمفهومه الشامل للإصلاح العقدي والسلوكي، الفردي والجماعي، وما ترتب عليه من طيب العيش في الدنيا، وبالفوز بما أعده الله للطائعين من ثواب في الآخرة، قال تعالى -على لسان نوح عليه السلام-: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١

(١) مقدمة عبد الجبار الرفاعي على كتاب التوحيد والتزكية والعمران للدكتور طه جابر العلواني ص(٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٨/١)، بتصرف.

(٣) هي: إصلاح الاعتقاد، وتهذيب الأخلاق، والتشريع، وسياسة الأمة، والقصص، والتعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، والمواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، والإعجاز بالقرآن (التحرير والتنوير ٤٠/١، ٤١).

(٤) مقاصد الشريعة ومكارمها لعلال الفاسي ص(٤٥)، ومنهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص(٢٤).

وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَرًا ﴿١٢﴾﴾[1]، وقال سبحانه -على لسان هود عليه السلام-: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[2]، وقال جل شأنه -على لسان نبيه محمد ﷺ-: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[3].

- إعلان الله تعالى في الملأ الأعلى أنه جاعلٌ آدم عليه السلام خليفة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾، وكل ما ثبت لآدم عليه السلام من خصائص هي ثابتة لذريته من بعده، فالمهمة التي خُلق لها الإنسان هي الخلافة، والخلافة أخص في المعنى من عمارة الأرض، فالخلافة -كما فسرها الراغب[4]- سياسة الخلق بمكارم الشريعة، ومقتضاه أن كل إنسان يسوس ما استرعاه الله بما شرعه له في كتابه، وما سنه النبي ﷺ، قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول، فالإمام راع وهو مسئول، والرجل راع على أهله وهو مسئول،

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠: ١٢.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٢.

(٣) سورة هود، من الآيتين: ٢، ٣.

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص(٨٣).

والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول»[١].

- أن هذا المقصد هو الملائم لما فطر الله تعالى عليه الإنسان من خصائص وغرائز ارتبطت بها عمارة الأرض ارتباط الماء بالعود الأخضر معنويا وماديا، فلا يمكن لإنسان أن يحيى على الأرض بدون عمارتها، ولا يمكن للأرض أن تعمر من غير أن يكون الإنسان قد فُطِر على ما فطر عليه من خلالٍ، وملائم كذلك لتسخير اللهِ هذا الكونَ بكل ما فيه للإنسان، وهيأه لأن تؤثر فيه يده بما ينفعه.
- أن هذا المقصد –بالمعنى الذي سبق تقريره– هو المتفق والغرضَ الذي خلق له الإنسان، وهو عبادة الله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٢].
- ما دل عليه الاستقراء من أن جميع مقاصد القرآن الكريم وما تفرع عنها من قضايا كلية أو فرعية تندرج تحت هذا المقصد الأعلى.

ومن ثَمَّ أجزم القول بأن عمارة الأرض هي المقصد الأعلى لنزول القرآن الكريم ولخلق الإنسان وتسخير الكون له.

* * *

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٣/٣)، كتاب: النكاح، باب: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم، من الآية: ٦]، حديث رقم (٥١٨٨)، ومسلم في صحيحه (١٤٥٩/٣)، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، حديث رقم (١٨٢٩)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦

المبحث الثاني
معالم منهج القرآن الكريم في عمارة الأرض

توطئة:

لقد تضمن القرآن الكريم المعالم الرئيسة لعمارة الأرض، وتمثل منهجه فيها: في التعريفِ بعناصرها، والتنبيهِ على خصائص كل عنصر منها، ومدى ارتباط تلك العناصر بعضها ببعض، تلك العناصر التي تتمثل في: الإنسان، والكون، والمنهج الرباني المنظم لسلوك الإنسان.

فالقرآن الكريم يعرِّف الإنسانَ بنفسه، ومكانتِه بين الخلائق، والهدفِ الذي أنيط بوجوده، وصفاتِه المؤهلة له لتحقيق هذا الهدف، والآفاتِ التي يمكن أن تحول بينه وبين تحقيقه، وسبل علاج تلك الآفات.

ويعرِّف الإنسانَ بحقيقة الكون حوله، وخصائصِه، والسنن التي أقيم عليها، ليعمل عقله في كيفية تذليلها في خدمته، وتحقيق الهدف من وجوده، والارتقاء بإنسانيته.

ويعرف الإنسان بضرورة المنهج الذي ينظم سلوكه مع نفسه، ومع مَنْ حوله مِنْ بني جنسه، ومع ما حوله أيضا من الكون بأسره، والنتائج المترتبة على تمسكه به أو انحرافه عنه.

إن التصور الدقيق لتلك العناصر الثلاثة لهو الركن الرصين، والحصن المتين في تحقيق عمارة الأرض.

والانحراف فيها يحول بين الإنسان وبين تحقيق هذا المقصد، فيفسد حينئذ ولا يصلح، ويشقى ولا يسعد.

ولهذا، فقد انتظم هذا المبحث في ثلاثة مطالب تضمنت المعالم الرئيسة لمنهج القرآن في عمارة الأرض، على النحو الآتي:

المطلب الأول: بيان القرآن لأبرز خصائص الإنسان وغرائزه المؤهلة له لعمارة الأرض.

المطلب الثاني: تأكيد القرآن الكريم على تسخير الكون للإنسان.

المطلب الثالث: بيان القرآن للمنهج الرباني المنظم لسلوك الإنسان في عمارة الأرض.

المطلب الأول: بيان القرآن لأبرز خصائص الإنسان وغرائزه المؤهلة له لعمارة الأرض

خلق الله الإنسان، وكرمه، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، فقد خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وجعله خليفة في الأرض، وقد تكررت دلالة الآيات القرآنية على إبراز تلك المكانة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[2]، وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[3].

(١) سورة ص، الآيات: ٧١: ٧٥.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

والظاهر أن إعلام الله الملأَ الأعلى أنه جاعل آدم عليه السلام خليفة في الأرض كان قبل أن يخلقه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

فقوله: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً" إعلام منه سبحانه في الملأ الأعلى بالمهمة التي خلق آدم عليه السلام لها. وهي مهمة عظيمة استشرفت لها نفوس الملائكة، فقالوا –متعجبين من اتخاذه غيرهم خليفة، وقد بلغوا في عبادتهم لله وطاعتهم له مكانة لا تداني–: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ"، يقول أبو السعود: «وإنما أظهروا تعجبهم؛ استكشافا عما خفي عليهم من الحِكم التي بدت على تلك المفاسد وألغتها، واستخبارا عما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التي جعلته أهلا لذلك»[2].

فبيَّن الله لهم الحكمة على وجه الإجمال تفخيما لشأنه، فقال: "إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، فهو مفطور دونَهم على خلالٍ اقتضتها الخلافة في الأرض وعمارتها. فلا يمكن للأرض أن تَعمُر ما لم يكن الإنسانُ متَّصِفا بتلك الخلالِ، ولا يمكن للإنسان أن يعيش على الأرض ما لم تعمر، فالعلاقة بين خلالِ الإنسان وبين عمارة الأرض علاقة تلازمية، لا يمكن لإحداهما أن تنفك عن الأخرى.

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) إرشاد العقل السليم (٨٢/١).

والمراد بخلال الإنسان: خصائصه وغرائزه التي فطره الله عليها، سواء أكانت تلك الخلال مما اختص بها الإنسان عن سائر المخلوقات، وذلك نحو العقل وما يستتبعه من العلم المكتسب، والحرية، والقابلية للخير والشر، والتكليف، والمسئولية، أم اشترك في الاتصاف بها مع بعض المخلوقات، وذلك نحو الغرائز البهيمية(١)، مثل غريزة الجنس، والحاجة إلى الطاقة، وحب الحياة وكراهة الموت ... إلخ.

الخاصية الأولى: العقل:

والحديث فيها ينتظم في الآتي:

أولا: العقل أخص الصفات الفطرية التي أودعها اللهُ الإنسانَ:

وهو أبرز ما ميزه الله تعالى به على سائر الحيوان(٢)، وإليه مردُّ كل فضلٍ خصَّه به دونهم.

وإنما جعله الله تعالى خليفة لما وهبه من العقل، وقد فُسِّرت به الأمانةُ في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾(٣)، يقول الطاهر ابن عاشور: «وتسميته أمانة تعظيمٌ لشأنه؛ ولأن الأشياء النفيسة تودع عند من يحتفظ بها، والمعنى: أن الحكمة اقتضت أن يكون

(١) الغريزة هي: الميل الفطري الذي يدفع الكائن الحي إلى العمل في اتجاه معين تحت ضغط حاجاته الحيوية. (معجم المصطلحات الشرعية لمجموعة من العلماء (١١٧٤/٣).

(٢) أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي ص(٨)، ودائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (٥٢٤/٦).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

الإنسان مستودع العقل من بين الموجودات العظيمة»[1]. فاستطاع به أن يقيم سنن الله، ويظهر عجائب صنعه، وأسرار خليقته، وبدائع حِكَمه، ومنافع أحكامه.

والعقل هو أبرز ما يُعرف به، حتى إن الفلاسفة والمتكلمين عرفوا الإنسان بأنه: حيوان ناطق، وناطق بمعنى: عاقل.

وقد عرفه العلماء بأنه: هيئة راسخة في النفس الإنسانية، تؤهلها لإدراك الحقائق والمعاني.

وقريب من هذا التعريف من عرّفه بأنه: القوة الفطرية التي أودعها الله تعالى في الإنسان، وخلقه عليها، متهيأ بسببها لقبول العلم[2].

وهما تعريفان للعقل الغريزي الذي يستوي فيه الطفل والبالغ، الرجل والمرأة، وهو أساس العقل المكتسب الذي يظهر بالمعرفة والفكر والتدبير، وبه تتفاوت الأفراد والأمم.

ثانيا: الإنسان أكثر المخلوقات تأثيرا في الكون لمكانة العقل منه:

يولد الإنسان ضعيفا، كما قال جل شأنه: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾[3]، ويخرج من بطن أمه جاهلا، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [4]، وعلى الرغم من ذلك استطاع أن يقف على أسرار الموجودات وسننها التي أقامها الله عليها،

(١) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (١٢٧/٢٢)، وينظر: روح البيان إسماعيل حقي (٢٤٩/٧).

(٢) معجم المصطلحات الشرعية (١١٢٥/٣).

(٣) سورة النساء، من الآية: ٢٨.

(٤) سورة النحل، من الآية: ٧٨.

وأن يذللها لمصلحته، وهو قادر على أن يصل –بإذن الله– في ذلك إلى حد أبعد مما وصل إليه، **وما ذلك إلا لمكانة العقل منه**؛ إذ به صار الإنسان غير محدود الإمكانيات في استعداده الفطري، وفي علمه، وعمله وتأثيره، بخلاف غيره من سائر المخلوقات على تفاوت أصنافها، سواء أكانت من عالم الغيب نحو الملائكة والجن، أم كان من عالم الشهادة، نحو الحيوانات والنباتات والجمادات.

والإنسان بهذا التأثير غير المحدود استطاع أن يُظهر حكمة الله في جعله خليفةً دون غيره من سائر المخلوقات، يقول الشيخ رشيد رضا: «(الإنسان) على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر، وموضع لعجب المتعجِّب؛ لأنه مع ضعفه يتصرف في الأقوياء، ومع جهله في نشأته يعلم جميع الأسماء... (ومرد ذلك إلى تلك القوة) التي يسمونها العقل... (فهو) بهذه القوة غير محدود الاستعداد، ولا محدود الرغائب، ولا محدود العلم، ولا محدود العمل، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفا لا حد له بإذن الله وتصريفه»[(١)].

ثالثا: حفاوة القرآن الكريم بالعقل:

احتفى القرآن الكريم بالعقل أيما حفاوة، وذلك لأنه مناط التأثير في الكون، وأول منازل الهداية، وميزان الرشاد والغواية، ومفرق الخير والشر، وتظهر صور تلك الحفاوة فيما يلي:

– تكرر ورودُ مشتقات مادته في القرآن الكريم تسعا وأربعين مرة، وتكرر ورود مشتقات مرادفاته من (القلب، والفؤاد، والنُّهَى، والحِجْر، واللُّب، ...الخ)، ومشتقات أعماله من (العلم، والفقه، والفكر، والقراءة، والوعي، والتذكر، والتدبر، والنظر، والاعتبار، ... الخ) أكثر من ألف

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٢١٦/١)، بتصرف يسير.

مـرة!![1]، علـى اخـتلاف وجـوه دلالات تلـك الألفـاظ مـا بـين الحقيقـة والمجاز، واختلاف ما بينها من فروق في المعاني حسبما تقتضيه الدلالةُ اللفظية لكلٍّ منها، وموردها في نسق الكلام. وهذا يدل دلالة تامة –لا ينكرها إلا جاحد– على إعلاء القرآن لمنزلة العقل، وعنايته به عناية خاصة.

- دعوته إياه إلى التفكير وحثه عليه، فقد تكررت الدعوة وتنوعت أساليبها بما دل دلالة لا مواربة فيها على أن التفكير فريضة قرآنية، يؤجر المكلف عليه ويُعاقب على تركه، ولم ينازع في ذلك أحد، يقول عباس العقاد –بعد أن ساق بعض الآيات التي تحث على التفكير–: «بهذه الآيات –وما جرى مجراها– تقررت –ولا جرم فريضة– التفكير في الإسلام»[2].
- بيان الآثار النافعة لاستعماله ووضعه في موضعه، والمضار المترتبة على التعدي عليه من الوقوع في ذنَب المعاصي، وشَرَكِ التخلف المقتضي الوقوعَ في التبعية والتقليد المذموم، وساحةِ الغواية والهلاك، قال تعالى:﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾[4]، وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(١) يراجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي.، في المواد (عقل، قلب، فأد، نهى، حجر، لبب، علم، فقه، فكر، قرأ، وعى، ذكر، دبر، نظر، عبر).

(٢) موسوعة العقاد الإسلامية ص(٨٤١/٥).

(٣) سورة الملك، الآية: ١٠.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[1].

رابعا: مجالات استعمال العقل:

إذا كان إعمال العقل واجبا شرعيا، وإهمالُه أو التعدي عليه حراما، فإن القرآن الكريم قد حدد له مجالات يثمر فيها متى أُعمل فيها، ويحقق المقصود منه رحمةً من الله تعالى به؛ إذ إنه مخلوق محدود الطاقة، متأثر بمؤثرات مادية، وتجارب شخصية، محصور بحدود زمانية ومكانية، وتتمثل تلك المجالات فيما يلي:

الأول: البحث في الكون.

والكَوْن هو: كل ما أحاط بالإنسان من العالَم المحس من السماوات والأرض وما بينهما، مما يمكن وقوعه تحت سمع وبصر الإنسان، سواء أدركه الإنسان بالفعل أم لم يدركه[2].

وهو أوسع المجالات التي يمكن للعقل أن يصول فيها ويجول، فلم يضع القرآن الكريم له فيها حدا، بل كانت دعوته إياه دعوة مطلقة، وشاملة للكون كله بكافة أجزائه، علويه وسفليه، دعاه إلى أن يرى حركاته، ويرقب تقلباته، ويستنبط أسراره، ويستخرج خصائصه، ويقف على سننه، فيهتدي به إلى خالقه جل شأنه، فيزداد يقينا بوجوده، وخضوعا لامتثال أمره، ثم هو يطوعه في تحقيق الغاية التي خُلق لها، ليرتقي بالحياة الإنسانية، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

(٢) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة لنخبة من العلماء ص(٤٧٤).

فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾[1].

وقال: سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[2].

وقال جل شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۖ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ٢٧﴾[3].

يقول الشيخ الغزالي: «إن هذا الكون هو المسرح الأول لفكرنا، وهو الينبوع الأول لإيماننا، والذهولُ عن الكون سقوط إنساني ذريع، وحجاب عن الله غليظ، وفشل في أداء رسالتنا التي خلقنا من أجلها، وعجز عن التجاوب مع وصايا القرآن التي تكررت في عشرات السور»[4].

الثاني: فهم وتدبر معاني القرآن الكريم.

أحاطت عناية الله تعالى ورعايته بالإنسان منذ نشأته –وهو الخليفة الذي أُمِر بعمارة الأرض– فما تركه يتخبط بغرائزه وشهواته، بل آتاه منه هدى ليسلك طريق الرشاد، فلا يضل في رحابه ولا يشقى، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة يونس، من الآية: ١٠١.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٢٧.

(٤) المحاور الخمسة للقرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي ص(٥٢، ٥١).

(٥) سورة القرة، من الآية: ٣٨.

وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[١]، فطوق نجاة الإنسان وتحقيق المقصد من وجوده مرهون بهذا الهدى الرباني، ولقد أمر الله بتدبر القرآن الكريم، خاتمةِ الكتب السماوية نزولا، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[٢].

ودور العقل أمام هذا الهدى يتمثل فيما يلي:

- قبول هذا الهدى؛ إذ ذاك هو مناط رشده وهدايته، والزيغُ عنه وقوعٌ في شَرَك الضلالة والهلاك.
- وضع آلية دقيقة لضمان فهمه فهما صحيحا بعيدا عن الانحراف عن الجادة واتباع الهوى، والتي تتسم بالاتساق بين معطيات النص وضرورات العقل.
- استخراج ما فيه من حِكَم وأحكام، والتفريق بين ما هو ثابت منها لا يغير بغير الزمان والمكان وما هو متغير، والتمييز بين ما يجب حمله على ظاهره، وما يجب أو ما يجوز تأويله.
- الاستدلال لقضاياه الكلية والفرعية إثباتا ونفيا، فيقدم الأدلةَ لإثبات ما أثبته النص، والأدلةَ لنفي ما نفاه. والثمرة المرجوة لهذا الدور هو الانقياد لأحكامه والسير على هداه.

الثالث: التصديق بالغيبيات.

العقل محدود في إدراكه، وميدان الغيبيات أوسع نطاقا من دائرة مداركه، ومن ثَمَّ فإن العقول قاصرة عن إدراك الغيبيات ابتداءً، وإنما دورها في ذلك هو التصديق لما جاء به الوحي الإلهي إثباتا أو نفيا، وما لا يتعرض له

(١) سورة طه، من الآية: ١٢٣.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٩.

الوحي لا مجال للعقل فيه البتة، فالعقل في ذلك تابع للنقل، وليس مستقلا عنه أو نِدا له.

وبيان ذلك أن الغيبيات تنقسم إلى قسمين:

- قسم يتوقف عليه تحقيق مقصد الوجود الإنساني، وهذا القسم قد بيَّنه القرآن الكريم بيانا شافيا، وقد تنوعت أساليبه فيه بما لم يدع مجالا للشك أو المراء فيه، وذلك نحو وجود الله تعالى، واتصافه بالكمال المطلق، وتنزهه عن كل نقص، والإيمان بالملائكة واليوم الآخر والقضاء والقدر ...إلخ.

فدور العقل فيه هو إثبات ما أثبته الوحي، ونفي ما نفاه، واليقين به، ورد الشبهات عنه ودحضها.

- قسم لا ضرورة له في تحقيق ذلك المقصد، وذلك مما زواه الله عنا، ولم يوحِ بها إلينا، ولا حاجة للاشتغال بها؛ إذ ذلك إهدار للجهد، وتبديد للطاقة العقلية فيما لم تُخلق له.

فموقف العقل منها عدم البحث فيها، والسؤال عنها، وذلك نحو البحث في حقيقة الروح، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[1]، والبحثِ عن الذات الإلهية؛ إذ لا حاجة لهم إليه، ولا يستطيع العقل المحدود إدراكه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله، فقال: «تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ، فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدُرُونَ قَدْرَهَ»[2].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو الشيخ الأصفهاني في العظمة (٢١٦/١)، وفي سنده من لم يُسم.

الخاصية الثانية: العلم:

والعلم -كما عرفه الراغب-: إدراك الشيء بحقيقته(١)، وهو تعريف يشمل إدراك وكشف كل مجهول، وتبيين له، من أي نوع كان ذلك المجهول، وفي أي مجال كان، مما يمكن للإنسان إدراكه، حتى تتضح حقيقته، وتلك هبة ربانية، خص الله بها الإنسان، وفطره عليها.

وهو مَظْهر ما أودع الله في الإنسان من العقل الذي أنيطت به أهليته للخلافة والتكليف والعمارة، فلولا العقل ما تعلم الإنسان أكثر مما يعلمه بنوا جنسه من سائر الحيوانات إلهاما؛ إذ يولد الحيوان وهو يعلم ما ينفعه وما يضره، ثم تتوقف مداركه عند هذا الحد من المعرفة، أما الإنسان فإنه يولد ولا يلهم شيئا إلا أن يجهش بالبكاء، ثم لا يلبث أن تتنامى مداركه، فيتعلم شيئا فشيئا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ (٢).

وقد ارتبطت بهذه الخاصية الخلافة في الأرض وعمارتها ارتباطا أوليا، فهو أظهر الخصائص التي أهَّلت آدم عليه السلام وذريته لها.

وبه أظهر الله حكمته في اختياره آدم عليه السلام خليفةً دون ملائكته، وأقام حجته عليهم؛ إذ قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ (٣)، يقول رشيد رضا: «وبهذه الخاصة التي فطر الله

(١) المفردات في غريب القرآن ص(٥٨٠)، مادة: علم.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.

(٣) سورة البقرة، من الآيتين: ٣٠، ٣١.

الناس عليها كان الإنسان أجدر بالخلافة من الملائكة، وهذه هي حجة الله البالغة على الملائكة التي بيَّنَها لهم»[1].

ولكون العلم فطرة لم يتوقف إقبال الإنسان عليه على وحي من الله تعالى، وإنما إقبال الإنسان عليه من حيث كونه إنسانا بغض النظر عن دينه أو معتقده.

ومع أنه فطرة إلا أن الهداية الربانية نظمته تنظيما يحقق الغاية من وجود الإنسان؛ إذ ثبت واقعيا أن من العلم ما يكون ضارا، وذلك نحو ما نشاهده اليوم مع الطفرة العلمية من الحرب البيولوجية، وهو نشر الجراثيم أو الفيروسات التي تفتك بالبشرية وبسائر الأحياء تحقيقا لمنفعة مادية تعود على بعض الأفراد أو المؤسسات. فنظمت الشريعة الغراء تلك الفطرة، لتتحقق منفعته وينتفي ضرره.

وتظهر أبرز تلك التنظيمات في ثلاثة أمور:

الأول: أن الله تعالى أمر به، والأمر فيه للوجوب، فهو مع كونه ضرورة إنسانية واجب شرعي، وتختلف صور الوجوب من كونه واجبا عينيا أو واجبا كفائيا على حسب طبيعة المجال العلمي، ومواهب الفرد، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾[3].

الثاني: أن الله فتح آفاقه أمام الإنسان، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [4]، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٢١٦/١)، وينظر: التحرير والتنوير (٤٠٧/١).
(٢) سورة طه، من الآية: ١١٤.
(٣) سورة العلق، الآية: ١.
(٤) سورة الزمر، من الآية: ٩.

ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ (١). ولم يقيده بشيء إلا أن يكون موصولا به تعالى قصدا ومنهجا، وإذا وصل العلم بالله تحقق نفعه، وانتفى ضره، وذلك هو العلم الذي ارتبطت به عمارة الأرض، قال جل شأنه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، فالفعل: "ٱقۡرَأۡ" فعلٌ متعدٍ، حذف مفعوله لإفادة العموم، وقوله: "بِٱسۡمِ رَبِّكَ" حال؛ أي: اقرأ مفتتحا باسم ربك(٢)، فلم يكن الأمر بالقراءة –وهو مفتاح العلم والمعرفة– مقيدا بعلم دون آخر، بل هو شامل للعلوم كلها، والشرط الوحيد الذي قيد به هو أن يكون موصولا بالله، وهذا هو المقصود بقوله: "بِٱسۡمِ رَبِّكَ ".

ولم يرد في القرآن الكريم مقيدا إلا في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ۝١٢٢﴾ (٣)، فقد قيده بالتفقه في الدين؛ لأنه هو الأساس الذي يستمد منه المؤمن طاقته، وهو المقياس لصحة مسلكه وصدق توجهه، فلو ثبت بالدليل أن ثمة علما يضر ولا ينفع، لوجب الانتهاء عنه، وحرم تعلمه وتعليمه، كعلم السحر مثلا.

فإن قلتَ: وقوله جل شأنه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ ﴾ (٤): أليس التعليم فيه مقيدا بالقرآن؟

(١) سورة المجادلة، من الآية: ١١.

(٢) الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (٤/٧٧٥).

(٣) سورة التوبة، من الآية: ١٢٢.

(٤) سورة الرحمن، الآيتان: ١، ٢.

فالجواب: أن تقييد التعلم بالقرآن في الآية الكريمة دليل على أنه عام في جميع العلوم كلها؛ إذ القرآن مشتمل على أصولها جميعا، وترك تفاصيلها – إلا ما اقتضى الحال تفصيله– إلى العقل رفعةً لمكانته وتقديرا لشأنه.

الثالث: أن الله وصف ما آتى الإنسان من علم بأنه قليل، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾[1]، والمراد بالعلم –كما قال أبو زهرة– هو العلم بالمحسوسات وظواهرها البيئية التي تتكشفها العقول وتعرفها الفهوم[2]، وذلك أن الكون واسع، وأسراره عديدة وعميقة، ومهما اطَّلع الإنسان عليه وأدرك من الحقائق والأسرار فلن يبلغ منه إلا كما يبلغ الطفو من قاعِ البحر، ولذلك أمره بالتزود منه فقال جل شأنه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾[3].

الخاصية الثالثة: قابلية الإنسان للهدى والضلال:

اقتضت حكمة الله أن يكون الإنسان مختارا؛ لمكانة العقل منه، ولا يتحقق هذا الاختيار إلا إذا أقدره الله على أمرين أو أكثر بينهما تناف، ومكَّنه من أحدهما تمكُّنه من الآخر، ففطره الله على قابلية الخير والشر، وتمييزه بين النفع والضر، قال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾[4]، أي: بيَّنّا طريق الخير والشر بما منحناه من عقل، به يكون تمييزه، وتفضلنا عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الأحكام، وبيّنَّا له عواقب كلٍّ من الطريقين، وتركنا له أن يختار أي السبل هو سالكها، فيختار إما طريق

(١) سورة الإسراء، من الآية: ٨٥.

(٢) زهرة التفاسير لأبي زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى (٤٤٤٧/٨).

(٣) سورة طه، من الآية: ١١٤.

(٤) سورة البلد، الآية: ١٠.

الخير فيكون شاكرا، وإما طريق الشر فيكون كفورا، كما قال جل شأنه: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[١]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾[٣]، ومعنى "فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا": أفهمها طريقي الفجور والتقوى، وعرفها حالهما من الحسن والقبح، وبين ما يؤدي إليه كل منهما، ومكَّنها من اختيار أيهما شاءت[٤].

وهذه الخاصية يشارك الجِنُّ فيها الإنس، كما دل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ١٥﴾[٥]، فهم مكلفون، فمنهم من اختار طريق الهدى، ومنهم من ضل، ومجزيون عما اختاروه لأنفسهم، فتكليفهم ومجازاتهم على أفعالهم دليل على قدرتهم على التمييز بين الخير والشر، وتمكنهم من فعل الخير والشر. فطبيعة الجن قابلة لسلوك طريق الخير وطريق الشر.

ومع ذلك قد جعلتُ قابلية الخير والشر خاصية من خصائص الإنسان دون الجن، لأني لم أقف على من صرح من العلماء بمناط ذاك التكليف

(١) سورة الكهف، من الآية: ٢٩.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(٣) سورة الشمس، الآيات: ٧: ١٠.
(٤) إرشاد العقل السليم (١٦٤/٩).
(٥) سورة الجن، الآيتان: ١٤، ١٥.

وهذه القابلية، أهو العقل أم قوة إدراكية أخرى يكون بها الإدراك والتمييز وفهم الخطاب التكليفي من القرآن الكريم والسنة النبوية؟

الخاصية الرابعة: حب التملك.

وهي غريزة فطرية تحمل الإنسان على السعي للعمل والكسب، يقول الشعراوي: «جعل الله غريزة (حب) المال في الإنسان؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل، ويستفيد الناس من عمله، أراد أو لم يرد»[١].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الغريزة في كثير من الآيات، منها:

قولـــه تعـــالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾[٢].

فأشـارت الآيـات الكريمـة إلـى مـا جبلـت عليـه نفـس أبـي البشـرية آدم عليه السلام، من حب التملك، وقد نزغ الشيطان إليه عليه السلام من هذا الباب، فقال: "هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ"، وهـو اسـتفهام مجـازي، الغرض منه الإغراء والتزيين[٣]، والمعنى: إن أكلت من هذه الشجرة –وقد نهاه الله عنها– كُتب لك البقاء الطويل الذي لا يعتريه فساد في البنية، والملك الدائم الذي لا ينفد، فنسي آدم عليه السلام ما نهاه الله عنه وحذر منه، فوقع فيه.

(١) تفسير الشعراوي لمحمد متولي الشعراوي (٢٦٩١/٥)، بتصرف.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم للدكتور عبد العظيم المطعني (٣٣٠/٢).

ومنها: قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾[(١)]؛ أي: إن الإنسان لشديدُ الحب للمال.

وتلك الغريزة لا حد لها، فالإنسان يسعى لتملك كل ما يمكن تملكه، من مختلف أنواع المال، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۝١٤﴾[(٢)].

فالآية الكريمة بيان لما فُطر الناس وجُبلوا على حبهم له، والتي منها: كثرة المال المشار إليه بقوله: "وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ" وتنوعه، المشار إليه بقوله: " مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِ ".

فلا حد لما يمتلكه الإنسان، يقول النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[(٣)].

وإنما كانت تلك الغريزة ضرورية لتحقيق عمارة الأرض؛ لأن الإنسان إذ يستجيب لدواعيها يعمل ويكد، ويسعى ويجتهد، فتعمر بسعيه الأرضُ، ويتحقق بذلك مراد الله من خلقه إياه.

---

(١) سورة العاديات، الآية: ٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (١٧٩/٤)، كتاب: الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال، حديث رقم (٦٤٣٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم في صحيحه (٧٢٥/٢)، كتاب: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثا، حديث رقم (١٠٤٨)، عن أنس، ﷺ.

ولكـن لهـذه الغريـزة آفـات، تـورد صـاحبها مـوارد التهلكـة متـى أفـرط أو فرط في الاستجابة إلى دواعيها، ومن ثَمَّ هذَّب القرآن الكريم تلك الغريزة، بما رسمه من منهج وضعها به في مسارها الصحيح، الذي يصلح ولا يفسد، ويبني ولا يهدم، ويحفظ حق الغير، ولا يجور أحد على حق أحد، فأمر بالسعي في طلب الرزق؛ إذ هو أساس الحصول على المال وتملكه، قال تعـــالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[1]، وقـــال ســـبحانه: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[2].

وأبـاح تـداول المـال بمختلـف ضـروبه، مـن البيـع والشـراء، والميـراث، والتصدق ... إلخ.

وحرم كل صور التعدي على مال الغير، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾[4].

الخاصية الخامسة: ثنائية التكوين من الروح والجسد.

اليقين بثنائية التكوين الإنساني من الروح والجسد لا إشكال فيه عند أتباع الديانات السماوية عامة، والمسلمين منهم خاصة، ولا مجال اليوم لإنكارها

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٢) سورة المزمل، من الآية: ٢٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٤) سورة المطففين، الآيات: ١: ٣.

حتى لدى أكثر المذاهب المادية تطرفا. فالإنسان قبضةٌ من طين، خلقه الله بيده، ونفخةٌ من روح الله، أودعها الله فيه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ (١).

تلك الثنائية الجامعة بين الروح والجسد هي من الخصائص التي ميّز الله بها الإنسان على سائر المخلوقات(٢)، وقد نشأ عنهما لديه دوافع ومتطلبات متنوعة ومتداخلة، ارتبطت بها عمارة الأرض، فلا الإنسان روح محضة، إذ لو كان كذلك لعجز عن العمارة المادية للأرض، فلا قِبَلَ له حينئذ أن يثير الأرض أو يسيم فيها مطيته، ولا هو مادة صرفة؛ وإلا فما كان أهلاً لأن يتلقى عن الله هدايته(٣).

فلكلٍّ من الجسد والروح دوافعه ومتطلباته التي لا قوام لكينونة الإنسان ولا ذاته إلا بها، وقد ارتبطا ببعض ارتباطا شديدا بحيث لا يتحقق أحدهما بدون الآخر، فمتطلبات الجسد لا تنفصل عن متطلبات الروح، ولا هذه عن تلك، وحتى تستقيم ذات الإنسان وبنيته يجب الاستجابة لهذه الدوافع وتحقيق تلك المتطلبات، فمن يزعم أنه يمكنه أن يؤدي حق روحه دون حق جسده فقد

---

(١) سورة السجدة، من الآيات: ٧: ٩.

(٢) لا مجال للتعرض لبيان أصل نشأة سائر الحيوانات؛ إذ لا دليل قطعيا عليه، وكل ما قيل فيه إنما هو أمور ظنية، وقد اعتمدوا على بعض الأدلة المحتملة.
واليقين الذي أجزم به أن الإنسان ميزه الله على سائر المخلوقات بأن خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، دون سائر المخلوقات، مع تفويض الكيفية لعلام الغيوب جل شأنه وهذا القدر كافٍ في تمييز الإنسان على سائر المخلوقات في أصل تكوينه.

(٣) نظرة القرآن في حكمة خلق الإنسان تحليل وتعليل للدكتورة حصة أحمد الغزال ص(٣٩).

وهم، ومن يزعم أنه يمكنه أن يؤدي حق جسده دون أن يقوم بحق روحه، فقد ضل، فالإفراط أو التفريط في أحد الجانبين يؤثر سلبا في كيان الذات الإنسانية.

وقد عني القرآن الكريم بهما معا، وحث على تحقيق كل منهما، من غير أن يطغى جانب على الآخر. فانظر كيف جمع الله بين الزينة والعبادة، فال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾[1]، وبين الدنيا والآخرة فقال سبحانه: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾[2].

وانظر كيف أنكر على من أغرق في مُتَع الدنيا ولذاتها، وطمس إشراق الروح في ذاته، فقال جل شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ ﴾[3].

كما أنكر على من فرط فيما أحل الله لعباده، فقال جل وعلا: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [4]، يقول العقاد: «الروح والجسد في القرآن الكريم ملاك الذات الإنسانية، تتم بهما الحياة، ولا ينكر أحدهما في سبيل الآخر، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد

(١) سورة الأعراف، من الآية: ٣١.

(٢) سورة القصص، من الآية: ٧٧.

(٣) سورة محمد، من الآية: ١٢.

(٤) سورة الأعراف، من الآية: ٣٢.

حقا ليوفي حقوق الروح، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفي حقوق الجسد، ولا يحمد منه الإسراف في مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك»[١].

- **طبيعة الروح ومتطلباتها:**

الروح غيبٌ استأثر الله تعالى بعلمه، فهو سر من أسرار الوجود، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[٢]، والمراد بالروح –في قول جمهور المفسرين– ما يحيا به بدن الإنسان، وبمفارقته للجسد يموت الإنسان[٣].

فإذا كانت الروح غيبا، إذاً هي غير خاضعة لمقاييس العلم التجريبي ولا لخصائص العالَم المادي، ولا يمكن الجزم بكنهها ولا متطلباتها إلا بالقدر الذي أمدنا به خالقُها جلت حكمته وأوحى به إلينا.

وقد أودع الله تلك المتطلبات في كتابه العزيز: في عقائده، وفي تشريعاته، وفي قيمه، وفي نظمه، وفي معانيه، وفي مقاصده، وفي كل ما اشتمل عليه، فيمكن تلخيص تلك المتطلبات في ربط العبد بربه في كل ما يأتي وما يذر، فلا قوام لروحٍ إلا بكتاب الله، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

فكتاب الله للروح كالروح للجسد، به حياتها، ألا ترى أن الله تعالى سمى القرآن روحا، فقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن

(١) موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية ص(٢٣٩/٤).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٣) روح المعاني للألوسي (١٤٤/٨)، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور محمد سيد طنطاوي (٤٢٢/٨).

(٤) سورة الإسراء، من الآية: ٨٢.

يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ ﴾[1]، وقال جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ ﴾[2].

والمراد بالروح في الآيتين هو القرآن الكريم، وإنما سماه الله تعالى روحا؛ لأن بـه حيـاة الأرواح واسـتقامتها، قـال الـرازي: «السـبب فـي تسـمية القـرآن بالروح أن بالقرآن تحصل حياة الأرواح والعقول»[3]، فالله تعالى وحده يعلم حقيقة الروح، ويعلم ما به استقامتها، فأودعه في كتابه، ولذلك قال: "مِنۡ أَمۡرِهِۦ"، و"مِّنۡ أَمۡرِنَا"؛ أي: مما ستأثر الله به وحجبه عن الناس[4]، يقول محمد فريد وجدي: «إن جهة إعجاز هذا الكتاب الأقدس هي تلك الروحانية العالية التي قلبت شكل العالم، وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله في أرضه»[5].

فالروح بهذه الكينونة التي استأثر الله بعلمها قد أَهَّلت الإنسان لعمارة الأرض، فهو يسمو بها نحو أفق الملأ الأعلى ليرتبط بالله تعالى، يستلهم منه إدراكه، ويتلقى منه منهاجه، فيعمر الأرض عمارة حقيقية، تحقق له إنسانيته، وتسمو بمنزلته .

(١) سورة النحل، من الآية: ٢.

(٢) سورة الشورى، من الآية: ٥٢.

(٣) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (٣٩٣/٢١).

(٤) التحرير والتنوير (١٥١/٢٥) .

(٥) دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدي (٦٧٨/٧).

- **طبيعة الجسد ومتطلباته:**

لقد فَصَّل القرآن الكريم مسيرة خلق الجسد –ممتزجا بعد حِين بالروح– منذ كونه قبضة من تراب إلى كونه جنينا في بطن أمه، ثم ولادته، ثم كونه طفلا ثم شابا ثم شيخا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾(٢).

وقال جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾(٣).

ومن أجل البيان القرآني لمبدأ خلق هذا الجسد ومراحل تكوينه، فإن هذا الجسد جارٍ على سنن العالم المادي، وخاضع لمقاييس العلم التجريبي.

---

(١) سورة الحج، من الآية: ٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢: ١٤.

(٣) سورة الروم، الآية: ٥٤.

وعلى الرغم من التقدم العلمي التجريبي الحديث وما أذهل بنتائجه العقول في كشف التركيب العضوي له، يبقى الإنسان بكيانه الشامل للروح والجسد كائنا مجهولا، يقول الطبيب (ألكسيس كاريل): «فالإنسان كلٌّ لا يتجزأ، وفي غاية التعقيد، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له، وليس هناك طريقة لفهمه في مجموعه أو في أجزائه في وقت واحد، كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي»(١).

ومع أن (كاريل) يعترف بصعوبة فهم الكيان الإنساني، إلا أنه يلح على ضرورة معرفة الإنسان؛ إذ هو السبيل الوحيد لحل مشاكلنا العصرية، فيقول: «العلاج الوحيد لهذا الشر المستطير هو معرفةٌ أكثرُ عمقا بأنفسنا»(٢).

وأقول: إن السبيل لمعرفة الكيان الإنساني هو القرآن الكريم، ففيه ما يعرِّف الإنسان بنفسه من حيث مبدأ خلقه، ومراحل حياته، والهدف الذي خلق لأجله، والخصائص المؤهلة له لتحقيق هذا الهدف، ومكانته بين الخلائق، ومصيره بعد مماته... إلخ.

فقد أودع الله تعالى في تلك القبضة الترابية من الخصائص العضوية والغريزية ما يؤهلها لعمارة الأرض، ففيه من الغرائز ما لا يجد بُدًّا إلا أن يستجيب لها، فيحفظ بذلك بنيته، ويحقق في الوقت ذاته عمارة الأرض(٣).

الخاصية السادسة: مدنية الإنسان:

ومعنى "مدنية الإنسان": اجتماعه مع غيره من بني جنسه، وهي فطرة في النفس ارتبط بها وجود الإنسان، فلا يمكن له العيش إلا مجتمعا مع بني جنسه، وذلك أن الإنسان يحتاج في توفير حاجاته، سواء أكانت ضرورية

(١) الإنسان ذلك المجهول تأليف: ألكسيس كاريل ص(١٦).

(٢) الإنسان ذلك المجهول ص(٤٢).

(٣) تفسير الشعراوي لمحمد متولي الشعراوي (٥/٢٦٩٠).

أم حاجية أم تحسينية[١] إلى أفراد كُثُر من بني جنسه، اختلفوا في المواهب العقلية، والاستعدادات النفسية، والقوى البدنية، بحيث يؤدي كلٌّ من الأعمال ما يلائم ما وهبه الله من قوى، فهذا يحرث، وذاك يطحن، وآخر يعجن...إلخ، وهذا يفكر في استحداث الآلات الضرورية لتلك الأعمال وتطويرها، وذلك يطبق تلك الأفكار...إلخ، والإنسان في سبيل تحقيق ذلك إنما يعمر الأرض، ويحقق الغاية من خلقه، يقول ابن الأزرق: «إن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم ضروري ومن ثم قال الحكماء: الإنسان مدني بالطبع؛ أي: لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية عندهم؛ ليحفظ به وجوده وبقاء نوعه؛ إذ لا يمكنه انفراده بتحصيل أسباب معاشه وإعداد ما يدفع به عن نفسه دون معين من أبناء جنسه، فيضطر به إلى اجتماع يتكفل له بذلك على أيسر مرام لتتم حكمة إيجاده وغاية ما خلق له»[٢].

وقد نظمت الشريعة الاجتماع البشري بما يحقق الغاية من وجود الإنسان، وذلك هو مدار أكثر الأحكام الشرعية، يقول الدكتور البوطي:

---

(١) ضروريات وهي: ما لا بد منها في حفظ حياة الإنسان وقيام مصالحه، كالغذاء الذي يستمد منه طاقته، ويحفظ به بدنه، والكساء الذي يستر عورته، ويقيه الحر والبرد، والمسكن الذي يأوي إليه.

حاجيات، وهي: ما لا بد منها للإنسان لرفع الحرج ودفع المشقة عنه، كالركائب (الدواب والسيارات والسفن) لقضاء حوائجه، والأدويةِ لدفع الألم.

تحسينيات، وهي: ما لا بد منها للإنسان في تحسين أمور حياته بأحسن صورة وأكمل أسلوب، كالطيب من الطعام، والزينة من الثياب، والفاره من المساكن (الموافقات في أصول الشريعة لإبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي (٢/٢٤).

(٢) بدائع السلك في طبائع الملك لأبي عبد الله ابن الأزرق (٥٣)، وينظر: التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (٢٦/٣٨٦)، ومقدمة ابن خلدون ص(٥٤).

«فجلُّ الأحكامِ الشرعية يتناول رسم حقوق العباد، وبيان كيفية رعايتها وسبل ضمانها»[1].

الخاصية السابعة: حاجة الإنسان إلى الطاقة:

فطر الله الإنسان على حاجته المتجددة إلى الطاقة التي أودعها في الطعام والشراب، فركَّب فيه شهوة الأكل والشرب ضمانا فطريا لحفظ بدنه وسلامته، فيقوى على أداء مهامه.

وفي القرآن الكريم ما يشير إلى تلك الغريزة، قال تعالى -مخاطبا آدم عليه السلام حين أدخله الجنة-: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[2]، ومفهومه: أنك إن خرجت من الجنة سُلّط عليك الجوع والظمأ، وهو مما يقتضي السعي والكد، وإثارة الأرض وزراعتها، فتشقى بذلك، قال سبحانه: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾[3].

وبسعي الإنسان وكده، تعمر الأرض، وتتحقق الغاية من وجود الإنسان عليها.

الخاصية الثامنة: الغريزة الجنسية:

إذا كانت المهمة التي خُلِق الإنسان لها هي الخلافة في الأرض وعمارتها، فإن تلك المهمة لا تتحقق إلا بأمرين:

- بقاء النوع الإنساني.
- انتشاره في الأرض.

---

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص(٢٦).

(٢) سورة طه، الآيتان: ١١٨، ١١٩.

(٣) سورة طه، الآيتان: ١١٧.

وقد امتن الله على البشرية فتحقق الأمران معا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾(١).

فقوله: "وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا " بيان للمنة الأولى، وهو بقاء النوع الإنساني، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ (٢).

وقوله: "وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً" بيان للمنة الثانية، وهي تفريقهم ونشرهم في الأرض(٣). كما في قوله جل شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٤)؛ أي: كثركم فيها بالتزويج(٥)، وقال جل شأنه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾(٦).

وإذا كانت عمارة الأرض لا تتحقق إلا ببقاء النوع الإنساني وانتشاره، فقد أمد الله الإنسان ذكرا وأنثى بالخصائص العضوية والنفسية المقتضية لذلك، فخلق في الرجل غريزة الميل إلى المرأة، وخلق في المرأة غريزة الميل إلى الرجل.

تلك الغريزة لها سلطان قوي على النفس تسوقها سوقا إلى تحقيق مراد الله من بقاء النوع الإنساني، وانتشاره في ربوع الأرض، حيث لا يستقر رجل إلا

---

(١) سورة النساء، من الآية: ١.

(٢) سورة النحل، من الآية: ٧٢.

(٣) تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي (٤/٣)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٥٨/٢)، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور محمد سيد طنطاوي (٢١/٣).

(٤) سورة المؤمنون، من الآية: ٧٩.

(٥) تاج العروس (٢٣٣/١)، مادة: ذرأ.

(٦) سورة الروم، الآية: ٢٠.

بوجود المرأة، ولا تستقر امرأة إلا بوجود رجل، فيسكن كلٌّ منهما إلى الآخر في سياق نظمه الشارع الحكيم وأوثقه، ثم يؤتي هذا السكن بثماره، وهو التلاقح والولادة ليبقى النوع الإنساني[1]، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾[2]، فقوله: "فَلَمَّا تَغَشَّاهَا " بعد ذكْرِ السكن يشير إلى أن ثمرة هذا السكن هو التلاقي بينهما والتلاقح ليكون ثمة حمل وولادة وبقاء للنوع البشري واستكثار له.

وقـــال ســـبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[3].

يقول الإمام الغزالي: «الفائدة الأولى (للنكاح): الولد، وهو الأصل، وله وضع النكاح، والمقصود إبقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة»[4].

ولهذه الغريزة آفاتها التي هذَّبها القرآن، فوضعها في نصابها الصحيح، فلم يرخ لها العِنان، ولم يكبح جماحها، بل أمر بالنكاح، فقال تعالى:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي (١٩٠/٨)، وزهرة التفاسير (٣٠٢٩/٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٤) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٢٤/٢)، بتصرف.

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [١]. وحرم كل وجوه الاستعداء عليها من وضعها في غير موضعها أو الخروج بها عن الفطرة السوية، حيث حرم الزنا، وحرم اللواط، وأنكر الرهبانية، ونهى عن التبتل والخصاء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ﴾[٣]، وقال جل شأنه -منكرا على أتباع نبي الله عيسى عليه السلام-: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾[٤]، والرهبانية: رفض النساء، واتخاذ الصوامع؛ قاله ابن عطية[٥].

وقد وصفها الله بأنهم "ٱبۡتَدَعُوهَا"؛ أي: ما سبقهم إليها أحد، وما شرعها الله لهم؛ لأنها منافية لما فطرهم عليه، فما التزموا بما ألزموا به أنفسهم.

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا

(١) سورة النساء، من الآية: ٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

(٣) سورة العنكبوت، من الآيتين: ٢٨، ٢٩.

(٤) سورة الحديد، من الآية: ٢٧.

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٥/٢٧٠).

أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وفي الصحيحين أيضا: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا»[2]، قال ابن الجوزي: «وإنما نهى نبينا ﷺ عن التبتل ليكثر الموحدون والمجاهدون»[3].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٣/٣٥٤)، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء، من الآية: ٣]، حديث رقم (٥٠٦٣)، ومسلم في صحيحه (٢/١٠٢٠)، كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، حديث رقم (١٤٠١)، واللفظ للبخاري.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٣/٣٥٦)، كتاب: النكاح، باب: ما يكره من التبتل والخصاء، حديث رقم (٥٠٧٣)، ومسلم في صحيحه (٢/١٠٢٠)، كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، حديث رقم (١٤٠٢)، واللفظ لهما.

والتبتل هو: الانقطاع عن النساء وترك النكاح؛ انقطاعا إلى عبادة الله؛ قاله الإمام النووي (المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي (٩/١٧٦).

والخصاء هو: سل الْأُنْثَيَيْنِ وإخراجهما (مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض (١/٢٤٣).

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/٢٣٧).

الخاصية التاسعة: غريزة حب البقاء وكراهة الموت:

لم تكن الغريزة الجنسية وحدها كافية لبقاء النوع الإنساني، وذلك أن الإنسان إذا لم يكن مفطورا على غريزة حب البقاء وكراهة الموت بحيث تقسره قسرا على الفرار من المخاطر المهلكة، وتدفعه إلى الحفاظ على حياته، فإنه سرعان ما يهلك؛ إذ ربما يسلم نفسه أو يلقي بها إلى التهلكة من غير مبالاة، ومن ثم فطره الله على تلك الغريزة، ولقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الغريزة في مواضع، منها:

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾[1]، فقوله: "هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ..." إغراء لآدم عليه السلام بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، فكان الباب الذي دخل إليه منه هو ما جُبل عليه من غريزة حب البقاء وحب التملك، التي ارتبطت بهما الخلافة في الأرض وعمارتها، وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾[2].

والفرق بين الأسلوبين في الموضعين: "هَلْ أَدُلُّكَ ..."، و"مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا ..." وهو ما اقتضاه إصرار إبليس على إغواء آدم عليه السلام وزوجه، فقد وقعت الوسوسة أكثر من مرة، الأولى كانت لآدم عليه السلام وحده، وقد سلك فيها أسلوب الاستفهام الذي معناه الإغراء والتزيين، والثانية كانت له ولزوجه –

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ٢٠.

بعد أن أدرك من آدم عليه السلام إصغاءً- وقد سلك فيها أسلوب الخبرية، وفي كل مرة إنما أغراهما بإثارة الغرائز الفطرية التي منها حب البقاء وكراهة الموت.

وقولـــه ســـبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ﴾[1]، فالفرار من الموت وكراهته فطرة، جبلت عليها النفس.

ولـم ينكـر النبـي ﷺ علـى أم المـؤمنين عائشـة كراهـة المـوت، فعـن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، فقال: «ليس ذاك... الحديث»[2].

وقد زكى الله تلك الفطرة، بما رسمه من منهج يحقق المقصد من نزول القرآن، فقد جعل حفظ النفس أن يعتدى عليها بأي صورة من صور الاعتداء إحدى الكليات الخمس التي دارت حولها الشريعة الغراء.

وجعل -جلت حكمته- القتلَ أحد صور الجزاء الرادع عن أشد ألوان الفساد في الأرض، وهو الحرابة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ

---

(١) سورة الجمعة، من الآية: ٨.

(٢) **وتمامـه:** "ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه"

متفـق عليـه: أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٢/٤)، كتاب: الرقاق، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، حديث رقم (٦٥٠٧)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، ومسلم في صحيحه (٢٠٦٥/٤)، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، حديث رقم (٢٦٨٤)، عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ للبخاري، وقال البخاري: اختصره أبو داود، وعمرو، عن شعبة، وقال سعيد، عن قتادة، عن زرارة، عن سعد، عن عائشة، عن النبي ﷺ.

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ ﴾[1]، ولن يكون القتل رادعا عن الفساد إلا إذا كان منافيا لما جبلت عليه النفس من كراهة الموت.

وجعل –فضلا منه وإحسانا– تأخير الأجل والإمداد في العمر إحدى المرغبات في الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾[3].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه»[4]، ولن تكون الرغبة

---

(١) سورة المائدة، من الآية: ٣٣.

(٢) سورة إبراهيم، من الآية: ١٠.

(٣) سورة نوح، من الآيتين: ٣، ٤.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٧٩/٢)، كتاب: البيوع، باب: من أحب البسط في الرزق، حديث رقم (٢٠٦٧)، ومسلم في صحيحه (١٩٨٢/٤)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها، حديث رقم (٢٥٥٧)، واللفظ لهما.

قال ابن حجر العسقلاني: «قال ابن التين: ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف، من الآية: ٣٤]، والجمع بينهما من وجهين:

أحدهما: أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة وصيانته عن تضييعه في غير ذلك، ومثل هذا ما جاء أن النبي ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم، فأعطاه الله ليلة القدر.

=

في الإمداد في العمر مرغبة في الإيمان والعمل إلا إذا كانت متوافقة مع فطرة النفس وجبلتها.

وأمر النبي ﷺ بالتداوي، فقال: «تداووا، فإن الله -عز وجل- لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد الهرم»[1].

وإنما أمر النبي ﷺ بالتداوي استجابة لتلك الفطرة، وحفاظا على بنية الجسد، ورفعا للآلام المثبطة عن العمل الذي يعد الركن الرئيس في عمارة الأرض.

=

وحاصله: أن صلة الرحم تكون سببا للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية، فيبقى بعده الذكر الجميل، فكأنه لم يمت، ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه، والخلف الصالح....

ثانيهما: أن الزيادة على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، وأما الأول الذي دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم الله تعالى، كأن يقال: للملك مثلا إن عمر فلان مائة مثلا إن وصل رحمه، وستون إن قطعها، وقد سبق في علم الله أنه يصل أو يقطع، فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد، الآية: ٣٩]، فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله تعالى فلا محو فيه ألبتة» (فتح الباري لابن حجر (٤١٦/١٠).

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في سننه (٣/٤)، كتاب: الطب، باب: في الرجل يتداوى، حديث رقم (٣٨٥٥)، والترمذي في سننه (٣٨٣/٤)، أبواب الطب عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الدواء والحث عليه، حديث رقم (٢٠٣٨)، عن أسامة بن شريك ﷺ، وقال: "وفي الباب عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي خزامة عن أبيه، وابن عباس، وهذا حديث حسن صحيح"، والبخاري في الأدب المفرد ص(١٠٩)، باب: حسن الخلق إذا فقهوا.

ولقد أبدع الإنسان في عصرنا الحديث أيما إبداع في الكشف عن خصائص البدن، واستنتاج ما يعرض له من أمراض، وتقديم الأدوية المناسبة له استجابة لتلك الفطرة.

****

المطلب الثاني: تأكيد القرآن الكريم على تسخير الكون للإنسان.

توطئة:

سبق بيان أن الله عز وجل خَصَّ الإنسان بأن يكون في صدارة الخلائق وأوليتهم من حيث المكانة لا من حيث زمن الوجود، حيث اختاره الله خليفةً في الأرض، وأوكل إليه مهمة عمارتها، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (١)، وفطره على خصائص وغرائز لتحقيق ذلك الهدف، وهيأ له الكون –قبل أن يخلقه– لأن يؤدي تلك المهمة العظمى، ويحقق ذلك المقصد الأسنى، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ (٢)، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ (٣)، وقال جل شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٤).

يقول الدكتور فاروق دسوقي: «لقد سخر الله –عز وجل– النواميس الكونية والطبيعية بحيث تلتقي غايات المخلوقات جميعا وأهدافها لتحقيق

(١) سورة هود، من الآية: ٦١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الحج، من الآية: ٦٥.

(٤) سورة لقمان، من الآية: ٢٠.

غاية الإنسان»[1]، ولم ينشز عن تلك الغاية شيء من مخلوقات الله تعالى، حتى الملائكة التي ميزها الله على سائر المخلوقات –والميزة لا تقتضي الأفضلية– حيث جعلها الله في تحقيق ذلك الغرض[2].

ويمكن إجمال معالم منهج القرآن الكريم في تأكيده على تسخير الله تعالى الكون للإنسان في معلمين رئيسين، هما:

المعلم الأول: عنايته بالحديث عن الكون.

لقد تحدث القرآن الكريم عن الكون في كثير من الآيات، سواء في الآيات المكية أو المدنية، من حيث بدء خلقه، وصورته التي خُلق عليها، والغرض الذي خُلِق له، وسننه التي أُقيم عليها، وإحكام خلقه وإتقانه، وتناسقه وتناغمه، وترتُّبِ بعض مظاهره على بعض ترتُّبَ المسببات على أسبابها، وخضوعه لإرادة الله تعالى، وطاعته له وتسبيحه له. فالكون لله خلقا وملكا وتدبيرا.

يأتي حديث القرآن الكريم عنه تارة إجمالا، وأخرى تفصيلا لبعض مظاهر الخلق وأفراده، وها هي بعض الآيات –وهي غيض من فيض–:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١﴾[3].

(١) استخلاف الإنسان في الأرض للدكتور فاروق أحمد دسوقي ص(١٠).

(٢) المرجع السابق ص(١١).

(٣) سورة فصلت، الآيات: ٩: ١١.

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾(١).

وقال جل شأنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾(٢).

وقال جل وعلا: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾(٣).

وقال جل من قائل: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾(٥).

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾(٦).

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة الجاثية، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٣) سورة القصص، الآيات: ٧١: ٧٣.

(٤) سورة النمل، من الآية: ٨٨.

(٥) سورة السجدة، من الآية: ٧.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

وقال جل شأنه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾[1].

وقال جل وعلا: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٢٠﴾[2].

وهذا الكون واسع سعة ربما يصعب على العقل تخيُّله، فالأرض التي يعيش الإنسان فيها جزء ضئيل من كون واسع فسيح، فما هي إلا كوكب من مجموعة كواكب –عددها ثمانية كواكب حسب تصنيف الاتحاد الفلكي الدولي عام ٢٠٠٦م– يسميها العلماء "المجموعة الشمسية"؛ لدورانها حول الشمس، وهذه المجموعة تنتمي إلى مجرة هي: "مجرة درب التبانة"، تضم أكثر من ٢٠٠ مليار كوكب، وتلك المجرة إحدى المجرات التي يتكون منها الكون[3]. ويقدر عدد المجرات في هذا الكون المنظور بحوالي ١٠٠ إلى ٢٠٠ مليار مجرة[4].

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية ما يشير إلى تلك السعة الضخمة، قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [5]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٢٠.

(٣) الإنسان والكون وتحديات العصر للدكتور عبد الغني عبود ص(١٩).

(٤) الموسوعة الحرة ويكيبيديا.
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D8%A7%D8%A6%D9%85%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AC%D8%B1%D8%A7%D8%AA_%D8%A7%D9.

(٥) سورة غافر، الآية: ٥٧.

فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾[١]، فـ"موسعون" من السعة، وهي امتداد مساحة المكان[٢].

وقوله جل وعلا: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[٣]، وقول النبي ﷺ: «ما السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة»[٤].

ومع سعة هذا الكون وعظمته، لم يفصل القرآن الكريم الحديث عنه إلا القدر اليسير، فما زواه الله تعالى عنا أكبر مما أطلعنا عليه وأعلمنا به بكثير جدا، وأحسب أن ذلك لأمرين:

- أن فيه تقديرا للعقل ورفعة لقدره؛ فإن ما يمكن للعقل إدراكه والوقوف على حقيقته وأسراره يدع القرآن الكريم التفصيل فيه، ويلفت الأنظار إليه بذكره والتنويه بشأنه، ويحثُّه على النظر والتدبر فيه، كما في قوله

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤٧، ٤٨.

(٢) التحرير والتنوير (١٦/٢٧).

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٥٥.

(٤) ضعيف جدا: جزء من حديث أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٩/٢)، كتاب: البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها- ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص في العقبى بشيء منها، حديث رقم (٣٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (٦٤٨/٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٠٠/٢) جميعهم عن أبي ذر الغفاري، من طريق إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى أبو إسحاق الغساني عن أبي، وقد انفرد به إبراهيم عن أبيه، قال الذهبي عنه: ذكره ابن حبان في الثقات، أخرج حديثه في "الأنواع"، وقال علي بن الجنيد: ينبغي أن لا يُحَدَّث عنه. وقال ابن أبي حاتم: أظنه لم يطلب العلم وهو كذاب (الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٤٢/٢)، وميزان الاعتدال في نقد الرجال للحافظ الذهبي (٧٢/١).

تعـــــالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[1]، وقولـــــه ســـــبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾[2].

- أن القدر الذي تحدث عنه القرآن الكريم ارتبط به الوجود الإنساني، وما أوكل إليه من الخلافة في الأرض وعمارتها، فمن تتبع موارد الآيات الكونية فيه متدبرا إياها، يجد أنه لا يمكن للإنسان أن تستقيم حياته على الأرض أو يؤدي ما له خُلِق من غير تلك المخلوقات العلوية والسفلية التي له خُلِقت وسُخِّرت لأجله.

****

المعلم الثاني: عنايته ببيان المقاصد من الحديث عن الكون.

عني القرآن الكريم عناية بالغة ببيان مقاصد خلق الكون وتسخيره، والتي ارتبطت بالمقصد العام لنزول الكتب وبعثة الرسل وتشريع الأحكام. وأبرز تلك المقاصد ثلاثة:

المقصد الأول: تقرير ألوهية الله تعالى.

تلك كبرى الحقائق التي انبثقت منها كل حقيقة، وارتبط بها وجود الكون كله؛ ليرتب عليها استحقاقه تعالى بالعبادة دون ما سواه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾[4]، فترى القرآن

(١) سورة يونس، من الآية: ١٠١.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٨٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

حين يقرر تلك الحقيقة يسوق لنا من المظاهر الكونية ما لا يملك أحد تعليلَها إلا بتسليمه وإقراره بوجود الله تعالى، فهو إذ يعرضها إنما يعرف الإنسان بربه وما اتصف به من صفات الجلال والجمال، وما ترتب على ذلك من استحقاقه وحده بالعبودية له.

ذلك المقصد هو أكثر ما أريد من حديث القرآن الكريم عن الكون لأجله، وأهم المقاصد، وأشملها.

فلا تكاد تجد جانبا من جوانب العقيدة التي يقررها القرآن إلا اقترن بمظهر من مظاهر الكون؛ وذلك لأن تقرير العقيدة السليمة وترسيخها في النفوس وضمان سلامتها عن الزيغ والانحراف هو الركن الركين والحصن المنيع لتحقيق معنى العمارة في صورتها المثلى والنهوض بها، عمارةً حقيقية تشمل جانبيها المادي والمعنوي، وتضمن بقاءها بقاءَ الإنسان على وجه البسيطة.

ولا يعنينا هنا استقصاء تلك المظاهر وإنما نسوق منها أنجُما تؤكد ما ذكرته:

- **ففي مقام التعريف بالله جل وعلا،** يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ وَجَعَلُواْ

لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1].

فقد ساق من مظاهر الكون ما لا يقدر أحد على إيجاده أو ادعائه لنفسه، وقد رتب عليه استحقاقه تعالى بالعبادة دون سواه، فاسم الإشارة في قوله: "ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ" يعود إلى ما ذكر من فلق الحب والنوى وإنشاء النبات والأشجار والأنفس، والتوالد، والتنزه المطلق عن الشريك والولد، وانفراده سبحانه بالخلق والتكوين والقيام لكل شيء والعلم بكل شيء[2]؛ أي: ذلكم الموصوف بما ذُكِر هو الله ربكم، المنعوت بصفات الجلال والكمال، المستحق للعبادة وحده، فالفاء في "فَٱعْبُدُوهُ" لترتيب العبادة على ما سبق ذكره، واختير اسم الإشارة "ذَٰلِكُمُ"؛ لأن اسم الإشارة كإعادة الموصوف بصفته، وأن "ذلك" موضوع للبعيد؛ إيذانا بعلو شأن المشار إليه وبعد منزلته في العظمة[3].

- **وفي مقام تقرير وحدانية الله تعالى،** يقول سبحانه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٩٥: ١٠٢.

(٢) زهرة التفاسير (٥/٢٦١٤)

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/١٦٩)، وحاشية القونوي على تفسير البيضاوي (٨/٢٢٢).

خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(١).

ففي الآيات الكريمة من مظاهر الكون الثابتة، ومن أحداثه المتجددة أمام العيان من خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الأرض بالثمار، ومن جعْلِ الأرض قرارا، وشقِّها بالأنهارِ الجارية، وتثبيتها بالجبال، وما جعل بين البحرين من حاجز، فلا يختلط الماء العذب بالمالح، ما لا ينازع فيه أحد أنه من خلق الله وحده، ليخلص من سوق تلك المظاهر إلى النتيجة الحتمية –في كل فقرة من فقرات تلك المظاهر– وهي: أن لا شريك مع الله في الخلق والتدبير، وقد ساقها في أسلوب الاستفهام الإنكاري: "أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ"؟(٢)، وهو أبلغ من النفي المجرد؛ إذ لا يجد المخاطَب المنصفُ بدا من الجواب بـ"لا إله مع الله" لقناعته بمضمون الجواب، أما النفي المجرد فلا يُعلَم فيه حال المخاطب، أيُصدِّق أم يكذِّب.

- **وفي إثبات البعث بعد الموت** يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾(٣).

فالآيات الكريمة سيقت لمنكري البعثِ المتسائلين عنه من مظاهر الكون حولهم وفي أنفسهم، المخلوقة على وجه الإتقان والإحكام، مما هو واقع

(١) سورة النمل، من الآيات: ٥٩: ٦١.

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم (١٦٨/٣).

(٣) سورة النبأ، الآيات: ٦: ١٦.

تحت أيديهم، من جعل الأرض مهادا، وتثبيتها بالجبال لئلا تضطرب فتستحيل عليها الحياة، وخلقهم أزواجا ليبقى النوع البشري، وتسليط النوم عليهم؛ لإراحة أبدانهم مما يجدونه من تعب الكد والعمل، وخلق الليل والنهار، والسماوات والشمس...إلخ – يسوق لهم منها ما لا يسعهم إلا الإقرار بقدرة خالقها وحكمته، فإذا ثبت أن الله تعالى قادر على خلقها بدءا، فهو على إعادتها أقدر – في تقدير العقل الإنساني، وإلا فالكل سواء بالنسبة لله تعالى– ؛ إذ الأجسام متساوية في قبول الإيجاد مطلقا، سواء أسُبِقت بعدم أم بإيجادٍ، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧ ﴾ (٢).

فقد ذكر الله تعالى من مظاهر الخلق ما يقرب به صورة إخراج الموتى، فقوله: "كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ"؛ أي: مثل ما أخرجنا هذا النبات من الأرض بعد أن لم يكن، نخرج الموتى من الأرض بعد أن صاروا تراباً، فقد ضرب بهذه الصورة ما يقرب إلى الأذهان كيفية إحياءِ الموتى وإخراجهم من قبورهم، إذ لا فرق بين الإخراجين.

وفي بيان أن الكون كله خاضع لإرادة الله، يقول سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ١٥ ﴾ (٣)، ويقول جل شأنه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ

(١) سورة الروم، من الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.

صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[١]، وسجود المخلوقات وتسبيحها لله سجود وتسبيح حقيقي، كلٌّ يسجد ويسبح بكيفية تتلائم وطبيعة خلقه؛ وهو الأظهر، أو أنه سجود وتسبيح مجازي، يراد به دلالته على خضوعه لأمره، وانقياده لإرادته، وعلى حكمة الله في صنعه.

المقصد الثاني: أنه برهان على دقة وإحكام المنهج الذي شرعه الله لعباده:

فالقرآن الكريم حينما يعرض المظاهر الكونية مبرزا فيها إحكامها وإبداعها، والترابط فيما بينها، والتدبير الذي يهدف إلى صلاح حال الإنسان واستحالة حياته بدونها- يعرضها مقترنة في الذكر ببعض الأحكام التشريعية، وفي هذا الاقتران إشارة إلى أن هذه الأحكام اتسمت بما اتصفت به تلك المظاهر من الحكمة، وأنها توقَّفَ عليها صلاحُ أمره.

وحسبنا في ذلك سورة النور مثالا، فإن مدار آياتها على بيان أحكام العفاف والستر[٢]، فقد اشتملت السورة الكريمة على أحكام الزنا والقذف به، وسبل الوقاية من الوقوع فيه، وبين ثنايا هذا البيان التفصيلي اشتملت السورة على بعض المظاهر الكونية، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾﴾[٣]،

---

(١) سورة النور، الآية: ٤١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢/١٥٨).

(٣) سورة النور، الآيات: ٤٣: ٤٥.

وتلك المظاهر هي المراد بالـ" ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ " التي ذكرها الله تعالى في مطلع السورة الكريمة: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾[1]، يقول شيخنا الإمام الأكبر الدكتور/ محمد سيد طنطاوي: «"وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ": واضحات الدلالة على وحدانيتنا وقدرتنا، وعلى صحة الأحكام التي وردت فيها؛ لتتذكروها، وتعتبروا بها، وتعتقدوا صحتها، وتنفذوا ما اشتملت عليه من أمر أو نهى»[2].

فأنت ترى أنه تستحيل حياة كل ذي روح عادةً بدون الماء، وأن إنزال الماء من السماء قد ارتبط بمظاهر كونية من إنشاء البخار وتكوين السُّحُب وإرسال الرياح وانخفاض درجات الحرارة، تلك المظاهر ارتبط بعضها ببعضها ارتباطَ المسبَّب بالسبب، وكلها خاضعة لإرادة الله، تسير بقدرته، وتتنزل بأمره، فيصيب الله بها من يشاء فينعم به، ويصرفها عمن يشاء، فيهلك.

فسوق هذه المظاهر الكونية في معرض تشريع الأحكام؛ إنما هو لبيان أن تلك الأحكام بها قوام الحياة واستقامتها، وأنها أحكام تعددت وتشابكت، وارتبط بعضها ببعض، لتحقيق صلاح حال الإنسان في معاشه ومعاده، فلا يتمسك بها إلا من هداه الله، فيسعد في دنياه وآخرته، ويعرض عنها من أراد الله هلاكه.

(١) سورة النور، من الآية: ١.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٧٨/١٠).

المقصد الثالث: إبراز تسخير الله تعالى الكون للإنسان:

من أظهر مقاصد القرآن الكريم في حديثه عن المظاهر الكونية إبراز أن الكون مسخر من الله تعالى لخدمة الإنسان، وإصلاح شؤون حياته، وتدبير أسباب معاشه في الدنيا.

والتسخير هو: سياقة الشيء إلى الغرض المختصّ له، سواء أكان ذلك قهرا[١] أم طواعية.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ ﴾[٢].

(١) المفردات في غريب القرآن ص(٤٠٢)، مادة: سخر.

وعبارات أكثر اللغويين صريحة بأنه التسخير لا يكون إلا قهرا، قال ابن سيده: «كل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر، فذلك مسخر» (المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٥/٧٥،)

والمفسرون على خلاف ما قاله أهل اللغة، قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: "نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ... الآية": «(الله) فاوت بين (عباده) في أسباب العيش، وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدما، ليصرف بعضهم بعضا في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم ويتسخروهم في أشغالهم، حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم» (الكشاف ٤/٢٤٨) بتصرف.

ومقتضى كلام الزمخشري أعم من أن يكون السوق قهرا أو طواعية، فالغني يسوق الفقير إلى قضاء حاجته طواعية وبأجر، والمريض الطبيبَ لعلاجه طواعية ...إلخ.

وقال السدي وابن زيد: «يسخر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض» (تفسير القرطبي ١٦/٨٣).

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢.

ومـن الثـاني قولـه سـبحانه: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ ﴾(١).

ولقد تكرر في القرآن الكريم إبراز ذلك المقصد في كثير من الآيات القرآنية، أسوق منها:

- قوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾(٢).
- وقوله جل شأنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ ﴾(٣).
- وقوله جل وعلا: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤ ﴾(٤).

(١) سورة الزخرف، من الآية: ٣٢.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢٩.

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

(٤) سورة النحل، الآيات: ١٢: ١٤.

- وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُمْ مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١).
- وقوله جلت حكمته: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢).
- وقوله جل من قائل: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٣).
- وقوله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٤).
- وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ (٥).

(١) سورة الحج، الآية: ٣٦.
(٢) سورة يس، الآيات: ٧١: ٧٣.
(٣) سورة الزخرف، الآيات: ١٢: ١٤.
(٤) سورة الجاثية، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٥) سورة الملك، من الآية: ١٥.

فهـذه التعبيـرات القرآنيـة المتكـررة: "خَلَقَ لَكُم"، و"ذَرَأَ لَكُمْ"، و"سَخَّرَ لَكُمُ"، و"وَذَلَّلْنَهَا لَهُمْ"، و"جَعَلَ لَكُمُ"، و"فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ"، **لها دلالة صريحة، وإشارات دقيقة، أهمها:**

أولاً: أن الله –جلت حكمته– كرَّم الإنسان وفضله على سائر المخلوقات، فسخرها له وطوعها لأداء الدور الذي أنيط به من عمارة الأرض والاستخلاف فيها، فهي خاضعة له، سواء أكانت خاضعة خضوعا مباشرا كتسخير الدواب، أم غير مباشر كتسخير أكثر المخلوقات السماوية. وعلى كلٍّ فلم يخرج مخلوق عن كونه مسخرا للإنسان، سواء أعرف الإنسان وجه نفعه أم لم يعرفه، فهو قانون عام لم يخرج عنه مخلوق في السماوات ولا في الأرض، لعموم قوله جل شأنه: "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ".

ثانياً: أن العلاقة بين تلك المخلوقات وبين الإنسان ليست قائمة على صراع أو تصادم –كما صورها الفكر الملحد– وإنما هي علاقة تسخير وتذليل، تدور حول المصلحة الإنسانية، فجميع المخلوقات هي عون له – من غير إرادة منها– على أداء دوره.

بل تقوم تلك العلاقة على التوافق والانسجام، والشعور بالمساواة في العبودية لله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾(١).

(١) سورة سبأ، من الآية: ١٠.

وقد وصف الله الحجر بما وصف به بعض البشر، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[١]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾[٢]، وإن اختلفت حقيقة الخشية بينهما.

وقد جسد النبي ﷺ تلك العلاقة في كثير من المواقف، فقد وصف ﷺ ناقته بقوله: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»[٣]، أي: ما امتنعت عن المشي، وما تعودت الامتناع عنه، فإن امتنعت عنه اليوم، فلأنها مأمورة بأمر الله منقادة إلى إرادته، كما ائتمر الفيل وانقاد لأمره ربه جل شأنه.

وقال ﷺ في جبل أحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه»[٤].

وقد حن الجذع إليه ﷺ حين تحول عنه في خطبته إلى المنبر، فما سكن حتى وضع ﷺ يده الشريفة عليه[٥].

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٧٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥٧.

(٣) جزء من حديث، أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٢٧٩)، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة و مروان بن الحكم مرسلا.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٣/١١١)،كتاب: المغازي، باب: أحد يحبنا ونحبه، حديث رقم (٤٠٨٣)، ومسلم في صحيحه (٢/١٠١١)،كتاب: الحج، باب: أحد جبل يحبنا ونحبه، حديث رقم (١٣٩٣)، عن أنس ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٥٢٥)، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٨٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فلم يكن الإنسان في ضوء تلك العلاقة متوجسا خوفا مما حوله من المخلوقات، أو منطويا على نفسه منها، بل يعيش متجاوبا معها، ساعيا إلى تسخيرها وتطويريها.

ثالثاً: أن تسخير الكون ليس خاصا بالمؤمن، بل هو عام لكل من المؤمن والكافر؛ إذ الخطاب المتكرر في الآيات السابقة بـ" لَكُمْ " خطاب عام(١)، فانتفاع الإنسان بالمخلوقات لم يكن متوقفا على الإيمان بخالقها ومسخِّرها –وإن كان التسخير مقصودا به أن يهتدي الإنسان إلى ربه كما سبقت الإشارة إلى ذلك– بل متوقف على مدى قدرته على تطويعها وتطويرها بما وهبه الله من عقل، وما خصه من علم، وفَطَره على حب التطلع والاستكشاف، ومن ثَمّ تكرر الأمر بالنظر في الكون والحض عليه في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾(٢)، وقوله جل من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾(٣)، وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن

(١) الوحي والإنسان– قراءة معرفية لمحمد السيد الجليند ص(١٧٧).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.

(٣) سورة الأعراف، من الآية: ١٨٥.

يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾[1]، وقوله جل شأنه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾[2]، وقوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾[3]

فتكرار الأمر الصريح بالنظر "ٱنظُرُوٓاْ "، والحث والحض عليه بـ"أَفَلَا يَنظُرُونَ "، والتوبيخ على تركه بـ"أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ"، وتخصيص الذين يتفكرون بالذكر– يدل على ضرورة أن يجول الإنسان بنظره فيما حوله من الكائنات المسخرة، وأن يديم التفكر فيها، ليقف على أسرار خلقها، ويبصر عجائب صنعها، فإنه السبيل إلى تطويعها فيما سُخِّرت له، والانتفاع بها، يقول الشيخ الغزالي: «إن الذهول عن الكون ودراسته باب إلى الجهل والضلال، وإن الإسلام يبني المعرفة على البصر العميق بالكون والبحث المستمر فيه، وإن انطلاق العلم بعيدا عن هذا المجرى انحراف إغريقي وليس نهجا إسلاميا... وإن وثبات العلم الحديث إنما تمت مع إدمان النظر في الكون والاغتراف من الأسرار والقوى المودعة فيه، وهذا هو نهج القرآن الواضح من آيات النظر الكثيرة»[4].

(١) سورة الروم، من الآيات: ٤٨: ٥٠.

(٢) سورة الغاشية، الآيات: ١٧: ٢٠.

(٣) سورة النحل، الآيتان: ١٠، ١١.

(٤) المحاور الخمسة للقرآن الكريم ص(٥٣) بتصرف.

والخلاصة: أن دراسة هذا الكون في شتى جوانبه واجب شرعي، وحاجة إنسانية، وضرورة حضارية.

رابعاً: أن مفهوم التسخير وخصائصه يقتضيان أن يسعى الإنسان للإفادة من تلك المخلوقات المسخرة أقصى ما يمكنه ذلك، وذلك بالبحث في خصائصها، والوقوف على أسرارها، واكتشاف سننها، وحسن تطويرها واستخدامه إياها.

وإن عمارة الأرض مرهونة بهذا البحث، والتقصير فيه إلقاء بالمجتمعات في هوة التخلف والتبعية، يقول محمد الجليند: «والتسخير لا يتم إلا بمعرفة هذه القوانين وإعمالها، وهذا هو مضمار السبق الحضاري بين الأمم، وميدان السبق والتنافس بين الشعوب. وهذه القوانين التي يتم بها تسخير العالم لا تتأبى على من تعرف عليها مؤمنا كان أو كافرا؛ لأن ذلك مما أودعه الله في الكون وجعله ذلولا لمن توصل إلى اكتشافه وتعرف عليه. ويستطيع بذلك أن يخضع الكون كله لصالحه، فيفيد منه، وينتفع بخبراته، وينافس غيره من أمم الأرض»(١).

خامساً: أن الله تعالى أمر بالشكر على نعمة التسخير تارة، فقال: "أَفَلَا يَشْكُرُونَ"، فالاستفهام للإنكار على تركه، ومقتضاه الأمر به، وعلله به تارة أخرى فقال: " وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"، وقال: "كَذَلِكَ سَخَّرَنَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "؛ وذلك لحق الله على عباده أن يشكروه على نعمه، ولئلا يتخذوا تلك المخلوقات مطية للفجور وأداة للإفساد في الأرض فتكون عليهم وبالا وهلاكا، والواقع الذي نشهده من الحروب البيولوجية والنووية التي تهدد الوجود البشري على وجه الأرض لا يخفى على ذي بصيرة أو

(١) الوحي والإنسان– قراءة معرفية ص(١٧٩).

بصر، وما ذلك إلا لأن طفرات العلم المتدفقة إلى الأمام وخطواته السريعة قد نشأت في رحاب بيئة ملحدة، لا تعترف بوجود الله، ولا تقر له بفضل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾[١].

إن شكر نعمة التسخير لهو نهج أنبياء الله وعباده الصالحين، فقد أوحى الله لنبيه داود وسليمان عليهما السلام –وقد سخر لهما الجبال والطير والريح والجن، وألان لداود عليه السلام الحديد–: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[٢]، فكان الشكر هو المقصد الأسمى من ذلك التسخير.

وأشاد بما كان من ذي القرنين، حيث قال: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾[٣]، وهو مظهر من مظاهر الشكر.

وذروة ذلك الشكر هو ما كان عليه خاتم النبيين محمد ﷺ في سائر شؤون حياته حيث كان يقول: «أفلا أكون عبدا شكورا»[٤].

(١) سورة يونس، من الآية: ٢٤.

(٢) سورة سبأ، من الآية: ١٣.

(٣) سورة الكهف، من الآية: ٩٥.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٥٢/١)،كتاب: التهجد، باب: قيام النبي ﷺ الليل حتى ترم قدماه، حديث رقم (١١٣٠)، ومسلم في صحيحه (٢١٧١/٤)، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (٢٨١٩)، عن المغيرة رضي الله عنه.

المطلب الثالث: بيان القرآن للمنهج الرباني المنظم لسلوك الإنسان في عمارة الأرض.

توطئة:

لقد ارتبطت عمارة الأرض منذ اللحظة الأولى لوجود الإنسان عليها وجعْلِه خليفة فيها بالمنهج الرباني الذي شرعه الله لتحقيقها، فقد تداركه الله برحمته، وأحاطه بعنايته، ولم يتركه ودوافعه الغريزية، يُفرِط فيها أو يُفرِّط، فيتخبط في سلوكه ولم يهتد إلى سبيله، قال تعالى –مخاطبا آدم عليه السلام وحواء وذريتهما–: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[2]، وقال جل شأنه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾[3].

والتعبير بـ"إِمَّا " في الآيات الكريمة يدل على تأكيد إيتاء اللهِ الإنسانَ الهدى المتمثلَ في إرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الأحكام التي ترسم لهم ذلك المنهج، فأصلها؛ أي: "إِمَّا": "إنْ" الشرطية، و"ما"، وهي حرف صلة (زائدة)، اقتضاها توكيد فعل الشرط، قال الزجاج: «الجزاء إذا جاءَ في الفعل معه النون الثقيلة أو الخفيفة لزمتها "ما" ومعنى لزومها إياها معنى

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

(٢) سورة طه، من الآيتين: ١٢٣، ١٢٤.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

التوكيد»[١]. فما تُرِك الإنسان في وقت ما إلا هداه الله إلى غايته، ورسم له منهجه، فأرسل إليه رسله، رسولا إثر رسول، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[٢]؛ أي: متتابعين، يخلف بعضهم بعضا حتى بعث في البشرية خاتم النبيين محمدا ﷺ، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[٣][٤].

وقد ارتبط بهذا المنهج قضيتان كبريان:

الأولى: تزكية النفس وتهيئتها لتتمسك بهذا المنهج.

الثانية: الدوافع التي تحمل النفس عليه، والزواجر التي تدفعها عن الإعراض عنه.

فمن تدبر معاني آيات القرآن الكريم، وربط بين بعضها برباط الوحدة المقاصدية وجد أنها تدور حول تلك المحاور الثلاثة: تزكية النفس، والمنهج المنظم للسلوك، والدوافع له والزواجر عن الإعراض عنه، لتلتقي تلك المحاور عند تحقيق العمارة بمفهومها الحقيقي والشامل للجوانب المعنوية والمادية.

---

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص(٢٤)، بتصرف.

(٢) سورة المؤمنون، من الآية: ٤٤.

(٣) سورة فاطر، من الآية: ٢٤.

(٤) شاع بين كثير من الكتاب في عصرنا الحديث أن الإنسان عاش قرونا من الزمان لا يعرف شيئا عن عمارة الأرض ولا مظاهر التقدم الحضاري، وأن حياته كانت أشبه بصورة مجتمع وحشي، فلم يهتد إلى شيء من مظاهر الرقي والتقدم إلا عن طريق الصدفة العمياء والتخبط العشوائي، ثم أخذ يطور حياته، ويحكم سيطرته على ما حوله من المخلوقات (الحضارة لحسين مؤنس ص(٩، ١٤). وذلك كله ضرب من الحدس، لم يستند إلى دليل، بل الدليل يرده ويدحضه (الأسباب والمسببات في القرآن الكريم للدكتور صبري منصور صيام ص(٣٩٢).

تلك المحاور الثلاثة هي معالم المنهج القرآني المنظم لسلوك الإنسان في عمارة الأرض، وأتناولها فيما يأتي بشيء من الإجمال:

المعلم الأول: تزكية النفس.

ذلكم هو أهم المحاور الرئيسة التي دارت حولها آيات القرآن الكريم وسوره، وأس المؤهِّلات المكتسبة لقيام الإنسان بدوره، وتحقيق المقصد من وجوده، وذلك أن الله جلت حكمته خلق الإنسان وخصه بخصائص روحية وجسدية متنوعة، وفطره على غرائز متعددة ارتبطت بها جميعا عمارة الأرض ارتباطا ضروريا، كما سبق بيانه.

فالإنسان مندفع في سلوكه عن هذه الخصائص والغرائز، ولن يتحقق المقصد الأعلى لوجود الإنسان الذي ارتبط بها إلا إذا وضعها في موضعها من غير إفراط ولا تفريط، وذلك مشروط بتزكية النفس وتطهير الفطرة، فإن فسدت فطرته ودسَّى نفسه، جنح بها إلى حد الإفراط أو التفريط، فوضعها في غير موضعها، فيكون حينئذٍ معول هدم وإفساد في الأرض، وليس أداة إصلاح فيها، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [1]، يقول الدكتور البوطي: «إن محور الدين الذي ألزم الله به عباده بما فيه من نسك وعبادات إنما هي هو تزكية النفس البشرية وتطهيرها مما قد يعلق بها عادة من الأدران والأوضار.... وليست تزكية النفس بدورها إلا الشرط الأساسي لتحمل الإنسان مسئولياته الحضارية بصدق وجد ... فبمقدار ما تتزكى النفس وتصفو من كدورات الأهواء والرعونات يخلص صاحبها في تحمل ما يجب أن يتحمله في سبيل بني جنسه من المهام والواجبات المختلفة،

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧: ١٠.

وبمقدار ما تنطوي تلك النفس على شوائبها ورعوناتها يغدو صاحبها مجرد أداة للإفساد في الأرض ولإهلاك والحرث والنسل ابتغاء مصالحه وأهوائه الشخصية مهما تحلى ظاهره بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة»[١].

ومن ثَمَّ تجد العناية الكبرى في القرآن الكريم بتزكية النفس وتطهيرها؛ إذ هي أحد المعالم الثلاثة لهذا الدين ولبعثة النبي محمد ﷺ، التي تكرر ذكرها في أربعة مواضع في القرآن الكريم، وهي: تلاوة الآيات، وتزكية النفوس، وتعليم الكتاب والحكمة:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾[٢].

قال سبحانه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾[٣].

وقال جل شأنه: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾[٤].

وقال جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾[٥].

(١) منهج الحضارة الإنسانية ص(٢٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٥) سورة الجمعة، الآية: ٢.

وقد جاء ذكر التزكية بين التلاوة والتعليم –وهو تعليم الكتاب والحكمة– إلا في الآية الأولى، حيث جاءت التزكية آخر هذه المعالم الثلاثة، وعلى الرغم مما ذكره اللغويون من أن العطف بالواو يفيد مطلق التشريك، إلا أن هذا الترتيب لا يخلو عن حكمة، يقول ابن عاشور: «وقدمت جملة: "وَيُزَكِّيكُمْ " على جملة: "وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ " هنا (أي: في الآية: ١٥١ من سورة البقرة، وكذلك في آيتي سورة آل عمران وسورة الجمعة)– عكس ما في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم: "يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ"؛ لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقدم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماما بها وبعثا لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلا للبشارة بها. فأما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنن»[١].

وتلكم معالم متكاملة، وأركان متماسكة، بمعنى أنه لا يمكن تحقيق الغرض من البعثة المحمدية إلا بإقامتها مجتمعة، وتفصيل ذلك وبيانه ليس هذا موضعه.

والذي يعنى به البحث هو بيان أن التزكية هي إحدى محاور القرآن الكريم، وأنها السبيل إلى عمارة الأرض عمارة متكاملة الجوانب.

والمراد بالتزكية: وضع خصائص النفس البشرية والغرائز الفطرية في نصابها الذي خُلقت له، من غير إفراط فيها ولا تفريط.

(١) التحرير والتنوير (٢/٤٩، ٥٠).

وهذا التعريف قريب مما عرفها به عبد الرؤوف المناوي، حيث قال: «وأصل التزكية: نفي ما يستقبح قولا أو فعلا، وحقيقتها الإخبار عما ينطوي عليه الإنسان»(١).

فمتى وضع الإنسان تلك الفِطَر في موضعها يكون بذلك قد طهرت نفسه من ظلمات الشبهات وأدران الشهوات، وارتقي بها إلى درجة الكمال البشري، ومحور ذلك كله هو حملها على منهج الله الذي أرسل به رسوله ﷺ وأنزل به كتابه.

ولتوضيح هذا التعريف أسوق مثالا، وهو غريزة التملك، فقد فطر الله – جلت حكمته– الإنسان عليها؛ لأنها ضرورية لعمارة الأرض، فإذا أطلق الإنسان العنان لها، سعى لجمع ما لا يحق له جمعه إلى ما له الحق فيه، فتدب حينئذ الشحناء بين الناس ويشيع القتل بينهم، ولا يتحقق الغرض الذي خلق له، وإذا ما استقام على المنهج الرباني الذي نظمها تنظيما يحقق الغرض منها، فلم يرسل لها العنان، ولم يكبتها، فإذا استقام الإنسان على ذلك المنهج، يكون قد وضع تلك الغريزة موضعها، فطهرت غريزته وزكت نفسه، وهكذا سائر غرائز النفس البشرية وخصائصها.

فجماع تزكية النفس يتمثل في حملها على منهج الله عقيدة وعبادة، سلوكا وأخلاقا، يقول الشيخ الغزالي: «التزكية تعنى : تهذيب النفس، وضبط الشهوات، وحكم العقل للهوى، وجعل الإنسان قديرا على أن يُسيِّرَ طبعه وفق مراد الله منه»(٢).

*****

(١) التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف المناوي ص(٩٦).

(٢) محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع ص(١١٤).

المعلم الثاني: تنظيم السلوك الإنساني الشامل لسلوك الفرد والمجتمع.

السلوك الإنساني بشتى مجالاته المتنوعة مرتبط بدوافع لتحقيق هدفٍ ما.

والدوافع هي: طاقات كامنة على شكل استعدادات تدفعنا نحو سلوك معين لتحقيق الغاية التي خلق الله الإنسان لها(١).

وتتنوع تلك الدوافع –حسب طبيعة النفس البشرية– إلى ثلاثة أنواع:

- **دوافع جسدية**، وهي كل ما يحتاجه البدن لبقائه أو لتحقيق الرفاه له، كالجوع، والعطش، والجنس، واتقاء الحر والقر ...إلخ، فإنها تدفع إلى العمل والكسب لتوفر الطعام والشراب والمسكن والزوج.
- **دوافع عقلية**، وتشمل كل ما جبل عليه العقل من التفكر والتدبر، وربط المسبَّبات بأسبابها، واستخراج النتائج من مقدماتها، وإلحاق النظير بنظيره، والموازنة بين الأضداد ...إلخ، فإنها تدفع إلى إعمال العقل للتوصل إلى معرفة ما جهله من عالم الماديات والغيبيات
- **دوافع روحية**، وتتمثل في الإيمان بإلهٍ يلجأ إليه عند حاجته، ويشعر بالطمأنينة عند مناجاته، فيتطلع إلى آفاق الملأ الأعلى، ويرتقي في مدارج السمو الروحي الذي يعلو على الماديات، يقول الدكتور حمدي زقزوق: «وهكذا نرى أن حاجات الإنسان ومتطلباته تنحصر في حاجات الحس، وحاجات العقل، وحاجات الروح»(٢).

وتتنوع كذلك –من حيث كونها جبلية أو مكتسبة– إلى نوعين:

- **دوافع جبلية**، كدوافع الوالدية –الأبوة والأمومة– والمدنيَّة، وحب التملك، وحب الحياة وكراهة الموت، والفرار من المهالك...إلخ

(١) لمحات نفسية في القرآن الكريم للدكتور عبد الحميد محمد الهاشمي ص(١٠٤).

(٢) العقيدة الدينية وأهميتها في حياة الإنسان للدكتور محمود حمدي زقزوق ص(١٢).

- **ودوافع مكتسبة**، كالدوافع المعرفية أو الثقافية التي يكتسبها الإنسان من مصادرها المتعددة خلال مسيرته الحياتية وتجاربه الشخصية[١].

فهذه الدوافع بشتى صورها منفردة أو مجتمعة هي ما تشكل سلوك الإنسان إقداما على شيء أو إحجاما عنه، والذي هو عماد عمارة الأرض.

- **حاجة الإنسان إلى منهج يضبط سلوكه ويحقق له التوازن.**

على الرغم من أن تلك الدوافع بمختلف أنواعها تشكل سلوك الإنسان، لكنها لا تحدث بالضرورة انضباطا له أو توازنا فيه، فربما يُفرِط المرءُ في الاستجابة لها، فيخرج بفطرته عن الحد الذي وضعت له، أو يُفرِّط فيها كأن يعطل ملكات النفس، فيعطل البدن عن السعي والحركة، أو العقل عن التفكر، أو الروح عن السمو إلى آفاق الملأ الأعلى، فيخرج بذلك عن حد الاعتدال إلى ما فيه الضرر أو الهلاك.

كذلك ربما تعارضت غرائزه مع غيره من بني جنسه، فينشب الخلاف بينهم، ويقع الاختلال في سلوكهم.

وكذلك يجهل الإنسان في غالب أحواله عواقب سلوكه ونتائجها في الدنيا، ولا سيما في الآخرة.

فلا بد للإنسان من منهج سديد، يحقق له التوازن، ويوجهه إلى غايته النبيلة التي خلق لأجلها، ويحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، ويكون له سلطان على نفسه، فترضى به وتخضع له.

ومن ثَمَّ اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بالإنسان أن شرع الشرائع التي تنظم سلوكه على مستوى الفرد والجماعة بما يحفظ فطرته ويزكيها، فكان محور الكثير من آيات القرآن الحكيم هو تشريع الأحكام الشرعية، وقد

(١) لمحات نفسية في القرآن الكريم ص(١٠٤).

وصف الله تعالى هذا المنهج بأنه فطرة الله، فقال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (١)، وقال جل شأنه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (٢). يقول الطاهر ابن عاشور: «إن الشريعة الإسلامية داعية أهلها إلى تقويم الفطرة والحفاظ على أعمالها، وإحياء ما اندرس منها أو اختلط بها، فالزواج والإرضاع من الفطرة، وشواهده ظاهرة في الخلقة، والتعاوض وآداب المعاشرة من الفطرة؛ لأنهما اقتضاهما التعاون على البقاء، وحفظ الأنفس والأنساب من الفطرة ... ونحن إذا أجدنا النظر في المقصد العام من التشريع ... نجده لا يعدو أن يساير حفظ الفطرة والحذر من خرقها واختلالها، ولعل ما أفضى إلى خرق عظيم فيها يعد في الشرع محذورا وممنوعا، وما أفضى إلى حفظ كيانها يعد واجبا»(٣).

- **بناء الأحكام على نوازع الفطرة:**

المتدبر في آيات الأحكام التكليفية في القرآن الكريم يستنبط أمرين:

الأول: أن هذه الأحكام تكاملت تكاملا شمل كل جوانب حياة الإنسان وما له به علاقة على مستوى الفرد والجماعة بما يحقق الهدف من الوجود الإنساني، وذلك يعني أنه لا يمكن الاستغناء ببعض تلك الأحكام عن بعض، فخرق بعضها تقصير في تحقيق المقصد من الوجود الإنساني.

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأنعام، من الآية: ١٣٥.

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر ابن عاشور ص(٢٦٥).

الثاني: أن مبنى الأحكام التكليفية هو طبيعة النفس البشرية وما جبلت عليه من غرائز وخصائص، فشرعت تلك الأحكام لتوجه تلك الغرائز إلى ما يحقق الغرض من وجود الإنسان.

فإن قيل: إذا كان الأخذ بالأحكام التكليفية في القرآن ضروريا في تحقيق الهدف من الوجود الإنساني، فما بالها قد دارت فيه بين الوجوب والندب والإباحة والتحريم والكراهة؟ والمقرر أصوليا أن المندوب والمباح والمكروه لا يلزم ضرورة الإتيان به أو تركه، فالمندوب يستحب الإتيان به، ولا يلام على تركه، والمكروه يستحب تركه، ولا يلام على فعله، والمباح لا لوم على فعله أو تركه.

فالجواب: أن بناء الحكم الشرعي لم يكن على وفق ضرورة الحكم وأهميته أو عدمه، وإنما جاء على وفق غرائز النفوس البشرية وطبائعها، فمع ضرورة الامتثال له جميعا، أمرا كان أو نهيا، لم يأت الخطاب التكليفي بدرجة واحدة، **وبيان ذلك فيما يأتي:**

١- إذا كان موجب الأمر له داع من الطبع وباعثٌ عليه فإن الأمر به – مع ضرورة الإتيان في تحقيق المقاصد الشرعية- يكون مندوبا أو مباحا؛ اتكالا على تلك النوازع.

نحو قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [1]، فإن الأمر بالأكل والشرب محمول على الندب؛ فإن النفس مجبولة عليه، وذلك لا يعني جواز تركه رأسا؛ لأنه ضروري لحفظ النفس من الهلاك، ألا ترى أن ترك الطعام والشراب رأسا أو التقصير في تحصيل أسبابه مع القدرة عليه إثم، يؤاخذ العبد به بين يدي الله.

(١) سورة الأعراف، من الآية: ٣١.

ونحو قوله تعالى: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾[1]، فالأمر بالمباشرة للإباحة –مع أنه ضروري لحفظ النوع البشري– لأن الفطرة داعية إليه، وحاملة عليه.

ونحو قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾[2]، فإن الأمر بالسعي في الأرض لطلب الرزق محمول على الإباحة؛ لما فطر الله عليه النفس من السعي وتحصيل أسباب الرزق، فلا يتوانى فيه إلا متواكل –والتواكل مذموم شرعا– أو عاجز عنه، فيُعْذَر.

٢– إذا لم يكن لموجب الأمر باعث عليه في النفس وحامل عليه، مع ضرورة الأخذ به، فإن الأمر يكون للوجوب.

نحو قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، فإن النفس مجبولة على الفرار من المخاطر وما يعرضها للهلكة، ولولا أن قتال الأعداء ضروري في استقرار المجتمع وأمنه –فهو سبيل لحفظ النفس والأموال والأعراض من فتك الأعداء أحفظ للنفس– ما أمر الله به.

وقوله سبحانه: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾[3]، فإن الأمر فيه للوجوب؛ لأن النفس مفطورة على شهوتي

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٨٧.

(٢) سورة الملم، الآية: ١٥.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ١٨٥.

البطن والفرج، ولولا ما في الصيام من الأسرار التي تطهر النفس وتحفظها من الهلاك ما أمر الله به.

٣- **إذا كان مقتضى الأمر هو تأكيد تحقيق المقصود مما أوجبه الله على عباده، فإنه يحمل على الندب**، كالأمر بالصدقة في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [(١)]، فإنه مؤكد لتحقيق المقصود بالأمر بالزكاة، وكالأمر بقيام الليل – في حق غير النبي ﷺ- فإنه مؤكد لتحقيق المقصود من الأمر بالصلاة.

وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾، فإنه محقق لمقصود الأمر بستر العورة[(٢)].

يقول الشاطبي: «المطلوب الشرعي (الأمر) ضربان:

أحدهما: ما كان شاهد الطبع خادما له، ومعينا على مقتضاه ...

والثاني: ما لم يكن كذلك ...

فأما الضرب الأول ... فلا يتأكد الطلب تأكد غيره حوالةً على الوازع الباعث على الموافقة دون المخالفة، وإن كان في نفس الأمر متأكدا ... وإنما جاء ذكر هذه الأشياء في معرض الإباحة أو الندب ...

وأما الضرب الثاني فإن الشارع قرره على مقتضاه من التأكيد في المؤكدات، والتخفيف في المخففات؛ إذ ليس لإنسان فيه خادم طبعي باعث

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٤٥.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ٣١.

علـى مقتضـى الطلـب، بـل ربمـا كـان مقتضـى الجبلـة يمانعـه وينازعـه، كالعبادات فإنها مجرد تكليف»[١].

٤- إذا كان مقتضى النهي هو فوات مصلحة ضرورية، يفوت بفواتها حفظ إحدى الكليات الخمس[٢] المجمع عليها عند جميع أهل الملل، فإن النهي يكون للتحريم.

ولا يخلو النهي حينئذٍ عن أحد أمرين:

الأول: أن يكون المنهي عنه له داع من الطبع وباعث عليه فإن النهي يقترن بما يؤكده من وجوب الحد عليه، أو بوعيد شديد أو تهديد أكيد أو نحوه؛ لأن الداعي إليه أشد، فيكون الزجر عنه أشد؛ لئلا يستهوي النفس فتقع فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[٣]، فقد استوجب الإلمامُ به الحد؛ لما في النفس من الداعي له والباعث عليه، قال سبحانه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾[٤].

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة (٣/٣٨٥: ٣٨٨)، بتصرف.

(٢) الكليات الخمس هي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ العرض.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

(٤) سورة النور، الآية: ٢.

ومنه أيضا النهي عن السرقة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾(١).

ونحو النهي عن الفرار يوم الزحف، فإن الطبع يحمل النفسَ عليه ويدعوها إليه طلبا للنجاة، فقرنه الله بالوعيد الشديد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾(٢).

ونحو النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾(٣)، فقد اقترن بالوعيد الشديد؛ لتوفر الداعي إليه، وهو ما فُطرت عليه النفس من حب المال والرغبة في تملكه.

ونحو النهي عن الربا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[1]، فقد اقترن النهي بالتهديد الشديد، وهو إعلان الحرب من الله؛ لما في النفس من الداعي إلى جمع المال بغير سعي ولا بذل مجهود.

الثاني: إذا لم يكن المنهي عنه له باعث من الطبع أو حامل عليه، أو كان الطبع وازعا عنه، فإنه لا يقترن بحد أو وعيد أو نحو ذلك، مع ضرورة الاجتناب عنه، اعتمادا على ما في الطبع من الذود عنه وعدم الاستهواء إليه، نحو تحريم نكاح الأمهات ومن عطف عليهن في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾[2]، ونحو الاستقسام بالأزلام في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ﴾[3].

ولا يعني عدمُ تأكيد النهي عنه التهاونَ في المؤاخذة به أو عدمَ الاكتراث بالإلمام به في إفساد الأرض.

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة المائدة، من الآية: ٣.

٥- إذا كان مقتضى النهي هو فوات مصلحة، لكنها غير ضرورية في حفظ إحدى الكليات الخمس، فإن النهي يكون للكراهة، كالنهي عن التصدق برديء المال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾[(١)]، لما فيه من كسر خاطر الفقير، ودليلٍ على أثر الشح في نفس الغني نهي عنه، وذلك مبني على أن الآية نزلت في صدقة التطوع؛ وهو المروي عن البراء بن عازب ﷺ والحسن، وقتادة؛ عزاه إليهم ابن عطية[(٢)]، ويؤيده سبب النزول[(٣)].

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٦٧.

(٢) المحرر الوجيز (٣٦١/١).

(٣) صحيح: أخرج الترمذي في سننه (٢١٨/٥)، كتاب: التفسير، باب: من سورة البقرة، حديث رقم (٢٩٨٧)، عن البراء ﷺ ﴿ٱلۡأَرۡضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ قال: «نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقِنْو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط من البسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه»؛ فأنزل الله تبارك تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ قالوا: «لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى، لم يأخذه إلا على إغماض أو حياء». قال: «فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده» قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب صحيح».

وأخرجه ابن ماجه في سننه (٥٨٣/١)، كتاب: الزكاة، باب: النهي أن يخرج في الصدقة شر ماله، حديث رقم (١٨٢٢)، والطبري في جامع البيان (٥٥٩/٥)، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم (٥٢٨/٢)، والحاكم في المستدرك (٣١٣/٢)، =

واللفظ صالح لحمله على الزكاة كذلك؛ وهو المروي عن علي بن أبي طالب ﷺ[1]؛ فيكون النهي حينئذ للتحريم؛ إذ لا يجزئ إخراج رديء المال عن جيده.

****

المعلم الثالث: ارتباط المنهج القرآني بالدوافع والزواجر.

إن المنهج القرآني المبني على نوازع الفطرة ودوافع الغريزة لا يلزم منه ضرورة الالتزام به، كما أن الخطاب القرآني القائم على الإقناع العقلي والتأثير الوجداني ليس كفيلا كذلك بأن يحمل كل نفس على الإذعان إليه والإيمان به، فقد اختلفت مشارب الناس وتعددت وجهاتها في قبولهم الحق وإذعانهم إليه:

فمنهم من يذعن إليه لمجرد كونه حقا.

ومنهم من لا يخضع له إلا بمقدار ما يترتب عليه من نتائج.

ومنهم من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسل به نبيه ﷺ.

ومن ثَمَّ كان ضروريا أن يرتبط هذا المنهج بالدوافع التي تحمل المكلَّف على التمسك به، وبالزواجر التي تحذر من الإعراض عنه.

=

كتاب: التفسير، من سورة البقرة، حديث رقم (٣١٢٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، ورواه السيوطي في الدر المنثور (٥٨/٢)، وزاد عزوه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (٥٦١/٥).

يقول ابن جزي: «المقصود بالقرآن دعوة الخلق إلى عبادة الله وإلى الدخول في دينه، ثم إنّ هذا المقصد يقتضي أمرين، لا بد منها، وإليهما ترجع معاني القرآن كله: أحدهما بيان العبادة التي دعي الخلق إليها. والأخرى ذكر بواعث تبعثهم على الدخول فيها وتردّدهم إليها»(١).

ومن هنا كانت تلك الدوافع والزواجر وما اقتضته من قضايا فرعية أحد المعالم الرئيسة للمنهج القرآني المنظم لسلوك الإنسان في عمارة الأرض، وأحد محاور القرآن الكريم الذي دارت حوله سوره وآياته، وهذا المحور قلَّ أن تجد سورة لم تشتمل عليه، سواء كانت مكية أو مدنية.

وتتمثل تلك الدوافع والزواجر في جانبين رئيسين:

الأول: ربط كثير من سنن الله تعالى الجارية في خلقه بالسلوك الإنساني برباط السببية.

الثاني: الثواب والعقاب المترتب على سلوك الإنسان.

المراد بالسلوك الإنساني: حسنات العباد وسيئاتهم، وبتعبير آخر، هو: التزام المكلفين بما شرعه الله لهم من أحكام تشريعية شاملة، تنظم حياتهم أفرادا وأمما، أو إعراضهم عنها، سواء أكانت تلك الأحكام أحكاما عقدية أم عملية أم أخلاقية، فهو؛ أي: سلوك الإنسان، ارتبطت به سنن الله الجارية في خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾(٢).

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ٨/١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

وقال سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

كما ارتبط به الجزاء العادل من الله تعالى يوم القيامة، قال جل وعلا: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾[2].

وها هما بشيء من البيان:

أولاً: ربط كثير من السنن الإلهية بالسلوك الإنساني برباط السببية.

من المعلوم أن لله -جلت حكمته- سننا ثابتة في خلقه، قد وصفها الله تعالى بقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾[3].

وقد ارتبط أكثر تلك السنن بسلوك الإنسان في استقامته على منهج الله، أو انحرافه عنه.

وقد دارت كثير من الآيات القرآنية حول تلك السنن[4]، من ذلك:

قولـــه تعـــالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

(٣) سورة فاطر، من الآية: ٤٣.

(٤) بلغت آيات السنن الربانية في القرآن الكريم ألفا ومائة وثلاثا وثلاثين آية، أي ما يعدل تقريبا ١٨.٢% من مجموع آي القرآن الكريم.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

وقولـه سـبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾[١].

وقولـه جـل شـأنه: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾[٢].

يقول السيد الطباطبائي: «إن بين (الأعمال) وبين الحوادث الخارجية ارتباطا، ونعني بالأعمال: الحسنات والسيئات ... والآيات ظاهرة في أن بين الأعمال والحوادث ارتباطا ما، شرا أو خيرا...

فالحوادث الكونية تتبع الأعمال بعض التبعية، فجري النوع الإنساني علـى طاعـة الله سـبحانه، وسـلوكه الطريـق الـذي يرتضـيه تسـتتبع نـزول الخيرات وانفتاح أبواب البركات.

وانحراف هذا النوع عن صراط العبودية، وتماديه في الغي والضلالة، وفساد النيات، وشناعة الأعمال يوجب ظهور الفساد في البر والبحر... وكذا ظهور المصائب والحوادث المبيدة الكونية، كالسيل والزلزلة والصاعقة والطوفان وغير ذلك، وقد عد الله سبحانه سيل العرم وطوفان نوح وصاعقة ثمود وصرصر عاد من هذا القبيل»[٣].

والميدان الفسيح لمعرفة مدى ارتباط السنن الإلهية بالسلوك الإنساني هو القصص القرآني –وقد استغرق قدرا كبيرا من الآيات القرآنية– الذي صور لنا تاريخ البشرية، مستوعبا مواطن العظات والعبر في مسيرتها منذ

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٣) الميزان في تفسير القرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي (١٨٤/٢، ١٨٥)، بتصرف.

نشأتها، وعوامل تمكينها، وأسباب أخذها بالشدة تارة، وهلاكها تارة أخرى، مبرزا أقدار الله التي جرت عليها مسبَّبة عن تمسكها أو إعراضها عن منهج الله .

يقول جعفر السبحاني: «والغاية التي (يهدف) إليها القصص (القرآني) تأتي في سياق الهدف القرآني العام الذي يتمثل في الدعوة إلى الله تعالى، وإلى اتباع منهجه الذي اختطه للإنسان وسعادته ورقيه، والتحذير من العصيان وتنكب طريق الإيمان.

وتكريسا لهذا الهدف جاء القصص القرآني من أجل إيقاف الإنسان على حياة الأمم السالفة وعوامل عزتها ومنعتها، أو هبوطها وسقوطها، وبالتالي الوقوف على سنن الله –سبحانه– في تاريخ الأمم، والتي تفضي إما إلى تكريم وإعزاز، أو إبادة وإهلاك»[1].

والناظر في القصص القرآني يجد أنه ما من أمة سلفت إلا تأهلت لعمارة الأرض بتوفر أسبابها المادية والمعنوية مع ما جبلت عليه النفوس من الغرائز والخصائص.

وأعني بالأسباب المادية: ذلكم الكون الذي سخره الله للإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُ﴾[3].

وبالأسباب المعنوية: ذلكم الهدى الرباني الذي أحاط به الإنسان منذ نشأته إلى يومنا هذا.

---

(١) القصص القرآنية دراسة ومعطيات وأهداف لجعفر السبحاني (١٣/١).

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢٩.

(٣) سورة الجاثية، من الآية: ١٢.

- **اختلاف الأمم في تحقيق عمارة الأرض بمفهومها الحقيقي.**

اختلفت الأمم أمام هذا التأهيل الرباني، ويمكن تصنيفها إلى أربعة أصناف:

- أمم لم تجد لها مظهرا من مظاهر الحضارة، وذلك لأنهم لم يستغلوا ما سخره الله لهم إلا بالقدر الذي يحفظ عليهم حياتهم، وأعرضوا عن هدى الله الذي آتاهم، فلم يحققوا الغاية التي خُلِقوا لأجلها، فأهلكهم الله تعالى، ويمثل هذا النموذج قوم نوح عليه السلام.
- أمم ملكت مِن مظاهر الحضارة المادية نواصيَها، وذلك أنهم بنوا حضارتهم على غير هدى من الله، فخالفوا الفطرة السوية، وأسرفوا في الاستجابة لغرائز النفس وشهواتها، فبعث الله إليهم رسله، يهدونهم إلى المنهج القويم والطريق المستقيم الذي يصحح لهم مسارهم، فيحفظ عليهم ما بنوا، ويرتقي بهم إلى أفق العلا، لكنهم أعرضوا، فأهلكهم الله وما عمروا، ويمثل هذا النموذج عاد وثمود وقوم فرعون.
- أمم بنت حضارتها على غير هدى من الله، مخالفين الفطرة، ومغرقين في اتباع الشهوات، فأرسل الله إليهم رسله لهدايتهم، فاهتدوا بهديهم، فتمتَّن بنيانهم، وارتقت عمارتهم، ثم أعرضوا عن شكر الله، وانحرفوا عن منهجه، فسلبهم الله النعمة، وبُدِّلوا بالعمران قفارا، فبقدر انحرافهم كان ضعفهم واضمحلالهم، ويمثل هذا النموذج مملكة سبأ.
- أمم بنت عمارتها على أسس الإيمان بالله والمنهج الرباني وما وهبهم الله من عطايا، واستقام على ذلك المنهج، فإن عمارتهم كانت عمارة سوية متكاملة، كُرِّم فيها الإنسان، ومكن الله له، فبقي بناؤها شامخا متينا إلى أن يقدر الله أمرا قضاه أزلا، ويمثل هذا النموذج حضارة نبي الله داود وابنه سليمان عليهما السلام، وبناء العبد الصالح ذي القرنين.

وتفصيل تلك النماذج يحتاج إلى رسالة علمية متخصصة، وحسبي في هذا البحث أن أشير إليها إشارة توضح المقصود من إيرادها فيه فما يلي:

الصنف الأول: ويمثلهم قوم نوح عليه السلام:

فقد تعددت موارد ذكرهم في القرآن الكريم[1]، حيث تهيأت لهم أسباب العمارة بمفهومها الشامل للجانب المادي والجانب الروحي، فقد أرسل إليهم نبيه نوحا عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان به، ويشرع لهم من الأحكام ما يصلح لهم ما أفسدوه من أمور معاشهم، وينشر بينهم العدل، ويحقق لهم التوازن، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣﴾[2].

ووهبهم ما خلقه للإنسان من سماوات طباق، أنارها بالشمس نهارا، وأضاءها بالقمر ليلا، وبسط لهم الأرض، وهيأ لهم العيش عليها، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ

(١) ذكرت قصة قوم نوح في القرآن الكريم في بضع عشرة سورة، فقد ذكرت تأتي تارة مجملة أثناء الحديث عن الأنبياء المرسلين المؤيدين بنصر الله تعالى، أو الأقوام المكذبين وما جرت عليهم سنة الله من الهلاك، وتارة تأتي مستقلة بين الإجمال والتفصيل، وذلك في تسع سور، وهي: سورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة هود، وسورة الأنبياء، وسورة المؤمنون، وسورة الشعراء، وسورة العنكبوت، وسورة الصافات، وسورة القمر، وسورة نوح. (القصص القرآني للدكتور فضل حسن عباس ص(٦٦).

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ٥٩: ٦٣.

يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[١].

والناظر في موارد قصتهم، والمتتبع لها، لا يجد لهم مظهرا من مظاهر التقدم المادي مثل الذي حظي به من جاء بعدهم من الأمم، فما كان نصيبهم من الكد إلا ما يحفظ عليهم حياتهم، وقد كانوا أهل فلاحة[٢]، قال مقاتل بن سليمان: «إن قوم نوح كذبوا نوحا زمانا طويلا، ثم حبس الله عنهم المطر، وعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فهلكت جناتهم ومواشيهم»[٣]. فدعاهم نبي الله نوح عليه السلام إلى ما يحقق لهم الاستقرار، ويغدق عليهم الخير، ويكون سببا لسعادتهم في الدنيا والآخر، وهو الإيمان بالله واتباع منهجه، قال تعالى –على لسان نوح عليه السلام–: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[٤]، والاستغفار –وهو طلب المغفرة من الله– الذي أمرهم به نوح عليه السلام لن يتحقق إلا بالإيمان والإقلاع عن الذنوب والمعاصي واتباع ما أمرهم به نبيهم عليه السلام، فإنهم إن فعلوا ذلك فازوا بخيري الآخرة والدنيا. لكن ما كان منهم إلا الإعراض، فأهلكهم الله واستأصلهم جميعا.

(١) سورة نوح، الآيات: ١٥: ٢٠.

(٢) التفسير الكبير (٦٥٢/٣٠)، وروح البيان (١٧٦/١٠)، والتحرير والتنوير (١٩٨/٢٩).

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان (٤٥٠/٤).

(٤) سورة نوح، الآيات: ١٠: ١٢.

الصنف الثاني: ويمثلهم قوم عاد وثمود وفرعون:

فقد امتلك هؤلاء نواصي العمارة المادية، فعمروا الأرض بالفلاحة والصناعة والبناء والتشييد...إلخ، على حقب زمانية متفاوتة، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض تلك المظاهر.

قال تعالى -حكاية عن نبيه هود عليه السلام-: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾[1].

وقال سبحانه -حكاية عن نبيه صالح عليه السلام-: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾[2]، وقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[3].

وقال جل شأنه واصفا ما كان عليه فرعون وقومه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾[4]، وقال جل وعلا: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾[5].

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٢٨: ١٣٤.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ٧٤.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٤٦: ١٤٩.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ٥٧، ٥٨.

(٥) سورة الدخان، الآيات: ٢٥: ٢٧.

تلك المظاهر المادية لم تكن نتيجة صدفة عمياء أو تخبط عشوائي، وإنما أُسِّست على علم ومعرفة، قال تعالى مبينا ما عندهم من علم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾(١)، وقال سبحانه -حكاية عن قارون-: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾(٢).

ولنا أن نتساءل: أين مكمن الداء الذي أودى بتلك الحضارات إلى الهلاك الشامل والاستئصال الكامل؟

والجواب: إنه يكمن في أنها مظاهر مادية بحتة حيث جنح بها أهلوها عما كانت إلى غير ما تقتضيه الفطرة، بل إلى الإسراف في الاستجابة لغرائز النفس ودواعي الشهوات من غير هدف صحيح ولا قصد سليم.

وبيان ذلك أن تلك الحضارات إنما بنيت أول ما بنيت عليه هو الإيمان بالله واتباع منهجه الذي ورثته كل أمة عمن سلفها من الأمم، فقد خلفت عادٌ المؤمنين من قوم نوح عليه السلام، وثمودُ متبعي نبي الله هود عليه السلام ...إلخ، فبُنيَت تلك الحضارات على منهج صحيح، فازدهرت حتى بلغت ذروتها، وفي القرآن إشارات واضحة إلى ذلكم التراث الذي ازدهرت في ضوئه تلك الحضارات، قال تعالى -حكاية عن نبيه هود عليه السلام-: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾(٣)، وقال سبحانه -حكاية عن نبيه صالح عليه السلام-: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٤).

(١) سورة غافر، من الآية: ٨٥.

(٢) سورة القصص، من الآية: ٧٨.

(٣) سورة الأعراف، من الآية: ٦٩.

(٤) سورة الأعراف، من الآية: ٧٤.

ثم اجتالتهم الشياطين، فجنحوا بها؛ أي: بتلك الحضارات، إلى ما يناقض الدين ويخالف الفطرة، فقد أنكروا جميعا وجود الله، حتى بلغ بهم الطغيان أن منهم من ادعى الألوهية من دون الله، كما حكى القرآن الكريم عن فرعون قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾(١)، وقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾(٢). وأنكروا أن يكون الأنبياء بشرا مثلهم، وغير ذلك كثير مما يناقض الفطرة، ويخالف العقل، فطغوا أيما طغيان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾(٣)، وهو وصف للأمم الثلاثة عاد وثمود وفرعون وجنده الذين سبق ذكرهم في الآيات.

وما كانت دعوة أنبياء الله لهم إلا تصحيحا للطريق الذي سلكوه في بنائها، فتحصنها من مصيرها المحتوم من الهلاك، فنبي الله هود عليه السلام يخاطب قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾(٤)، فبين لهم سنة الله في الربط بين الإيمان به وتحقيق الرخاء والاستقرار والتمكين.

(١) سورة القصص، من الآية: ٣٨.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الفجر، الآيتان: ١١، ١٢.

(٤) سورة هود، الآيات: ٥٢

ونبي الله صالح عليه السلام يخاطب قومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[1].

والاستفهام في "أَتُتْرَكُونَ" للإنكار، ومعناه النفي[2]؛ أي: لن تتركوا على هذه الحال من النعيم الرغيد وأنتم عاكفون على ما أنتم عليه من البطر والترف والإفساد في الأرض. ومفهوم الكلام أنكم إن آمنتم بالله واتبعتم منهجه، أمنتم، وحصنتم ما أنتم فيه من تلك النعم من الهلاك، فلن يزيدكم اتباع منهج الله إلا ارتقاءً واستقرارا.

وجوز الزمخشري أن يكون الاستفهام للتقرير، والمعنى: أنكم قد تركتم آمنين منعمين في جنات وعيون وزروع ونخل مثمرة ...إلخ[3]، فأدوا ما عليكم من شكر المنعم عليكم بتقواه وطاعتي، تدم عليكم نعمه.

وكليم الله موسى عليه السلام لم ينكر على القوم ما كان عليه من مظاهر القوة، ولكنه وعدهم إن آمنوا بالله واتبعوا منهجه مكَّن لهم، وزادهم من فضله، فقال جل شأنه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[4].

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٤٦: ١٤٩.

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام (١١١/٣).

(٣) الكشاف (٣٢٧/٣).

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

وقال جل وعلا: –على لسان موسى عليه السلام–: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ﴾[1]، قـــال الزمخشـــري: «ومعنـــى "تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ": أذن ربكم... ولا بد في تفعّلٍ من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبه»[2].

لكنهم جميعا لم يرعووا عن فسادهم، بل تمادوا في ضلالهم، فأهلكهم الله وما بنته أيديهم.

الصنف الثالث: ويمثلهم مملكة سبأ:

وقد ذكر الله خبرهم في موضعين:

الموضع الأول: في سورة النمل حيث ذكر الله تعالى من مظاهر الرقي المادي ما يلفت النظر، ويسترعي الانتباه، قال تعالى –على لسان الهدهد مخاطبا نبي الله سليمان عليه السلام–: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾[3]، والتعبير بـ" كُلِّ شَيْءٍ " يوحي إلى الخيال ما يوحى من عظمة هذه الحضارة ورقيها، لكنها إذ أسست، أسست على غير هدى من الله، فعبدوا الشمس من دون الله، قال سبحانه –على لسان الهدهد–: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4]؛ أي: وجدت الملكة بلقيس وقومها يسجدون للشمس من دون الله.

---

(١) سورة إبراهيم، من الآية: ٧.

(٢) الكشاف (٥٤١/٢)، بتصرف.

(٣) سورة سبأ، من الآيتين: ٢٢، ٢٣.

(٤) سورة سبأ، من الآية: ٢٤.

لكنها مجرد أن عرفت الحق انصاعت له وأذعنت إليه، فقد هيأ الله لهم أسباب الهداية حيث أرسل إليهم نبيه سليمان، فآمنت به، قال تعالى مخبرا عن ملكتهم بلقيس-: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1]، وآمن معها قومها، واتبعوا منهج الله وشرعته، وقد ارتقت تلك الحضارة وبلغت أَوْجَها في ظل ذلك المنهج، وامتد بها الزمن، وهم في رغد من العيش.

الموضع الثاني: في سورة سبأ، حيث وصف الله ما وصل إليه سبأ من رقي مادي وروحي بقوله جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾[2].

فـ"جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ" مظهر مادي، وهو يحمل في ثناياه مظهرا روحيا لما فيه من الدلالة على عظمة المنعِم جلا وعلا، فهو تفسير لـ"آيَةٌ"، وكذلك "بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ"؛ أي: خصبة تربتها، نقيٌّ هواؤها، صافٍ ماؤها.

و"وَرَبٌّ غَفُورٌ" مظهر روحي، فيه وصف لسعة رحمة الله بهم حين تزل أقدامهم عن منهجه الذي شرعه لهم؛ أي: أنهم متمسكون بما شرعه الله لهم من شرائع، لكن حين يغلب الهوى النفسَ فتزل باقتراف معصية ما، فإنهم يتوجهون إلى الله بالاستغفار، فيغفر الله لهم.

(١) سورة النمل، من الآية: ٤٤.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٥.

هـذا هـو الجـو العـام الـذي ارتقـت فيـه حضـارتهم، وتمـتن بنيانهـا، وتحصـنت فيـه عمـا لحـق بمـا سـلفهم مـن الحضـارات مـن الهـلاك، لكـن لـم يستمر حالهم على ما كانوا عليه، بل أعرضوا عن منهج الله، ففرطوا في شكر نعمه عليهم، فانهدمت حصونهم، وتقوض بنيانهم، وقلت خيراتهم، وتوالت المحن عليهم، قال تعالى: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦﴾[1].

وكان ذلك بسبب كفرانهم بنعم الله عليهم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾[2]، والمـراد بـالكفر هنـا هـو كفران النعمـة وعدمُ شكرها، لا كفر الجحود؛ إذ الكفر عند إطلاقه يحمل على كفر الجحود، وإذا قوبل بالشكر، فالمراد به كفران النعمة[3]، كما هو فـي الآيـة الكريمـة لمقابلتـه بقولـه: "كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ"، ولأن من سنن الله في الأمم السابقة أن الكفر –مع ما يتسبب عنه من المظالم– يقتضي عذاب الاستئصال، وظاهر في الآيات أنهم لم يُستأصلوا، ولكن قلت خيراتهم، وتخبطوا في سعيهم، فالسبب في ذلك هو إعراضهم عن منهج الله تعالى، فكان حمل الكفر على كفران النعمة أرجح.

الصنف الرابع: ويمثلهم ملك الداودية والسليمانية، وحضارة ذي القرنين:

وهـي حضـارات أقيمـت علـى دعـائم قويمـة، وأسـس صـحيحة، حيـث تأسست على الإيمان بالله العظيم، والتمسكِ بهداه الذي أحاط به الإنسان

(١) سورة سبأ، الآية: ١٦.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٧.

(٣) الأسباب والمسببات في القرآن الكريم للباحث ص(٥٦٨).

منذ اللحظة لوجوده على الأرض، وعلى العلم الذي تأسس على الإيمان الله تعالى.

فقد وصف الله تعالى ما آتى نبيه داود عليه السلام من الملك، قال تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]، فقوله: "وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ " إشارة إلى ما بلغته تلك الحضارة من ذروة المجد، ومعناه: قوينا ملكه، قال ابن عطية: «"وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ": عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وخير ونعمة»[2].

ووصف تعالى ما آتى نبيه سليمان عليه السلام، فقال: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [3]، وهو تصوير لعظمة هذا الملك، وتعدُّدِ أدواته من العدالة في الفصل، والحكمة في التصرف، والقوة في البأس ... إلخ

ووصف سبحانه ملك ذي القرنين، فقال جل وعلا: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾[4]، فقد مكن الله له في الأرض، فأعطاه سلطانا ووطد له دعائمه، ويسر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع.. وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة.

وإنما بلغت هذه الحضارات أوجها واستقام أمرها؛ وما ذلك إلا لأنها أسست على دعائم قوية، وأسسٍ متينة، أهمها:

---

(١) سورة ص، الآية:٢٠.

(٢) المحرر الوجيز (٤٩٧/٤).

(٣) سورة النمل، من الآية: ١٦.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٨٤.

- الإيمان بالله تعالى، وهو أساس كل خير وأمُّه.
- اتبـاع المـنهج الربـاني بكافـة جوانبـه، قـال تعـالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١).
- العلم الذي امتدت أسبابه بالله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗا﴾(٢)، فكان علما ثماره كلها خير وبركة له، أما العلم الذي تأسس على الإلحاد، فإن شره أرجى من خيره، وضره أقرب من نفعه.
- أن العلم مقرون فيها بالعمل، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾(٣)، وقـــال ســـبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾(٤)، فلم ينفك عملهم عما أوتوا من علم لدني أو كسبي.
- تسـخير مـا أوتـوا فـي الإصـلاح، سـواء أكـان مـا آتـاهم الله مـن خـوارق العادات (المعجزات)، كما سخر داود عليه السلام إلانة الحديد في عمل الدروع الواقيـة قـال تعـالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾(٥)، وسخر سليمان علمه في إتيان عرش ملكة سبأ (بلقيس) لتأتي إليه مذعنة مسلمة هي وقومها، قال سبحانه: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ

(١) سورة ص، من الآية: ٢٦.
(٢) سورة النمل، من الآية: ١٥.
(٣) سورة سبأ، من الآية: ١١.
(٤) سورة سبأ، من الآية: ١٣.
(٥) سورة سبأ، من الآية: ١١.

أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾(١)، فقد أحضره فيما دون طرفة العين

أم كان من الأمور الجارية (العادات)، كما سخر ذو القرنين ما آتاه الله من قوة في بناء سد يأجوج ومأجوج، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾(٢).

والخلاصة: أن الله تعالى ربط بين العمارة الحقيقة للأرض وبين الإيمان به واتباع منهجه، فلا تتحقق إلا في ظلهما، وإن ظن ظان أنه يمكن تحقيق البناء الحضاري منفصما عن الإيمان والاتباع، فما تلك الحضارة المبتغاة إلا كسراب بقيعة، فإذا تحقق أمرها لم يجدها إلا إهانة للإنسانية واستذلالا لها، وذلك من أهم الدوافع للتمسك بالحق واتباعه.

(١) سورة النمل، من الآيات: ٣٨: ٤٠.

(٢) سورة الكهف، الآيات: ٩٤: ٩٧.

ثانيا: الثواب والعقاب المترتب على سلوك الإنسان:

الثـواب لغـة: الرجـوع، يقـال: ثـاب يثـوب إذا رجـع، ومنـه قولـه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[1]؛ أي: مكانـا يرجعـون إليـه، لا يقضـون منه وطرا أبدا[2].

ويطلق على الجزاء باعتبار أن مآله إليه، وهو المراد به هنا.

واصطلاحا: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، وأكثر ما يستعمل فـي الخيـر، سـواء فـي الـدنيا أو فـي الآخـرة، قـال تعـالى: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[3].

وقـد يسـتعمل فـي الشـر نحـو قولـه جـل شـأنه: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾[4]، وقولـه جـل وعـلا: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾[5][6]، واختلف في استعماله فيه بين الحقيقة؛ وهو ما ذهب إليه الأزهري، والمجاز، وهو مقتضى ما ذكره الجوهري؛ حيث اقتصر عليه[7].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٢٥.

(٢) مقاييس اللغة (٣٩٣/١)، مادة: ثوب.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

(٤) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٣.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٦) المفردات في غريب القرآن (١٨٠)، مادة: ثوب.

(٧) الصحاح (٩٥/١)، وتهذيب اللغة للأزهري (١٥٥/١٥)، وتاج العروس (١٠٤/٢)، مادة: ثوب.

والعقاب لغة: من العقب، قال ابن فارس: «العين والقاف والباء ... تدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره»[١]، قال الليث: «عاقبة كل شيء: آخره»[٢].

فتطلق العاقبة والعقبى على الجزاء؛ لكونه مترتبا على العمل، وأن مآله؛ أي: العمل، إليه، فيطلق على الجزاء الحسن، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾[٤].

ويطلق على الجزاء السيء، قال تعالى: ﴿وَعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾[٥]، [٥]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾[٦]، وقال جل جل شأنه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[٧]. ﴾[٧].

والعقاب والمعاقبة خاص بالجزاء على فعل السوء[٨].

---

(١) مقاييس اللغة (٧٧/٤)، مادة: عقب.
(٢) تهذيب اللغة (٢٧٦/١)، مادة: عقب.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٤) سورة الرعد، من الآيتين: ٢٢، ٢٣.
(٥) سورة الرعد، من الآية: ٣٥.
(٦) سورة الروم، من الآية: ٩.
(٧) سورة الحشر، الآية: ١٧.
(٨) تهذيب اللغة (٢٧٧/١)، مادة: عقب.

واصـطلاحا: الإيـلام الـذي يتعقـب بـه جـرم سـابق[1]، وظـاهر هـذا التعريف أنه يشمل عقاب الدنيا والآخرة.

وأيًّا ما كان تعريفُ كليهما في اللغة أو الاصطلاح، فالذي أُرِيد به في هذا البحث هو: أن الثواب: ما وعد الله بـه عبـاده المؤمنين من أجر فـي الحياة الآخرة خاصة، وأن العقاب: ما أُعِد للعصاة والكافرين من عذاب في الآخرة.

أمـا مـا وُعِد بـه هؤلاء وهؤلاء فـي الحيـاة الدنيا –وإن كـان داخـلا فـي المفهوم العام لهما– فغير مراد؛ حيث أفردته بالذكر فيما سبق من الحديث عن ربط السنن الإلهية بالسلوك الإنساني.

فما أعده الله لعباده الصالحين من نعيم، وللمفسدين من عذاب أليم في الحياة الآخرة، وما ارتبط به من قضايا، أبرزها: بيان موقف المكلفين من الإيمان بـه، ومن سوق الأدلة عليه، وضرب الأمثال لـه، وما يقع فـي هذا اليوم من أهوال عظام وأحداث جِسام، وما للإيمان بـه من آثارٍ دنيوية، يتمثل أهمها في تحقيق المقصد من وجود الإنسان في الدنيا، ومن سعادته الأبدية في الآخرة، فقد نال هذا المحور النصيب الأكبر والقدر الأوفر من آيات القرآن الكريم وسوره، فلا تكاد تجد سورة إلا اشتملت على طرف من الحديث عنه إلا بعضا من السور لا سيما من سور المفصل، كسورة العصر وسورة الفيل وسورة قريش وسورة الكافرون وسورة الإخلاص والمعوذتين.

وإنما كان الحديث عن الثواب والعقاب دافعا للتمسك بالمنهج الذي شرعه الله وزاجرا للإعراض عنه، لتحقق المقصد من وجود الإنسان وهو عمارة الأرض، قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا

(١) التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف المناوي ص(٢٤٤).

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾[٢]، وقال جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾[٥]، وقال جل شأنه: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾[٦].

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٧٢.
(٤) سورة يونس، الآية: ٢٧.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٦٣.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٨٧.

الخاتمة

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وبمنه تبارك الطيبات، والصلاة والسلام على أشرف المخلوقات، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن سلك دربهم، واتبع هديهم إلى يوم الدين.

وبعد،،،،

فقد انتهيت بفضل الله تعالى من هذا البحث: (منهج القرآن الكريم في عمارة الأرض)، وقد عكفت في إعداده أشهراً، **وكان أهم ما توصلت إليه من نتائج ما يأتي:**

١- أن عمارة الأرض هي المقصد الرئيس لوجود الإنسان، ولنزول القرآن الكريم، ولتسخير الكون للإنسان.

٢- أن الله قد خص الإنسان بخصائص وغرائز اجتمعت فيه وحده دون سائر الخلائق العلوية والسفلية، قد أهلته لحمل أعباء الخلافة في الأرض والقيام بعمارتها.

٣- أن العلاقة بين خصائص الإنسان وغرائزه وبين عمارة الأرض علاقة تلازمية؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش من غير أن يعمر الأرض، ولا يمكن أن تعمُرَ الأرض ما لم يكن الإنسان متصفا بتلك الخلال.

٤- أن هدى الله قد أحاط بالإنسانية منذ بزوغ وجودها على الأرض لتحقيق ما له قد خُلِق، فلم تكن مسيرة البناء الحضاري للإنسانية نتيجة ضربة لازب أو تخبط عشوائي.

٥- أن العمارة الحقيقة للأرض لابد أن يتوفر فيها أمران:

أ- أن تقوم على أساس الإيمان بالله وما يقتضيه من اتباع منهجه.

ب- أن تكون شاملة لكل ما للإنسان به علاقة من جوانب روحية أو مادية.

٦- أن عمارة الأرض بمفهومها الحقيقي والشامل هي العبادة التي أمر الله بها الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا

نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾﴾[2].

٧- أنه يجب استثمار الجهود الإنسانية في كافة مجالات الحياة وتوجيهها لتحقيق العمارة الحقيقية للأرض التي أنيطت بالإنسان.

٨- أن محاور القرآن الكريم الثلاثة التي دارت عليه آياته وسوره: (التزكية، والمنهج، والترغيب والترهيب) تلتقي جميعها لتحقق مقصد واحد هو: عمارة الأرض.

٩- أن العمارة الحقيقة لن تكون إلا وفق ما رسمه الله لعباده من منهج يحقق ذلك المقصد الأسنى.

١٠-أنه يجب وضع القصص القرآني في قالب عمارة الأرض على اختلاف استقبال الأمم لهدى الله الذي آتاهم لتحقيق ذلك المقصد، والإفادة منه اليوم لتُعِيد الأمة الإسلامية شهودها وقيادتها للعالم.

وأخيراً:

لا يسعني في الختام إلا أن أتوجه إلى الله -تعالى- بالدعاء أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن يكتب له حسن القبول وعظيم المثوبة، وأن يعم النفع به، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات والديّ يوم القيامة، وأن يلبس أمي ثوب الصحة والعافية، وأن ينزل والدِي منازل الأبرار،،،، آمين، آمين، آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما كثيراً

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٢) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

١- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ط: دار المعرفة- بيروت.

٢- أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، ط: دار اقرأ- بيروت، الرابعة، سنة: ١٩٨٥م.

٣- الأدب المفرد لأبي عبد الله البخاري، ط: دار البشائر الإسلامية – بيروت، الثالثة، سنة: ١٩٨٩م.

٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٥- الأسباب والمسببات في القرآن الكريم للدكتور صبري منصور عبد العزيز محمود، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة- جامعة الأزهر الشريف.

٦- استخلاف الإنسان في الأرض للدكتور فاروق أحمد دسوقي، ط: دار الدعوة- الإسكندرية.

٧- الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر محمود شلتوت، ط: دار الشروق- القاهرة، الثامنة عشر، سنة: ٢٠٠١م.

٨- الأسماء والصفات لأبي بكر البيهقي أحمد بن الحسين بن علي الخُسْرَوْجِردي، ط: مكتبة السوادي، جدة – المملكة العربية السعودية، الأولى، سنة: ١٩٩٣م.

٩- إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي للدكتور زياد خليل الدماغين، بحث منشور في مجلة إسلامية المعرفة- المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد: ٥٤، سنة: ٢٠٠٨م.

١٠- الإنسان ذلك المجهول تأليف: ألكسيس كاريل، ترجمة: شفيق أسعد فريد ط: مكتبة المعارف- بيروت، الثالثة، سنة: ١٩٨٠م.

١١- الإنسان والكون وتحديات العصر للدكتور عبد الغني عبود، ط: دار الفكر العربي، الأولى، سنة: ١٩٧٧م.
١٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لعبد الله بن عمر البيضاوي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٨هـ.
١٣- البحر المحيط في أصول الفقه لبدر الدين محمد بن عبد الله الدين الزركشي، ط: دار الكتبي، الأولى، سنة: ١٩٩٤م.
١٤- بدائع السلك في طبائع الملك لأبي عبد الله ابن الأزرق، ط: دار السلام- القاهرة، الأولى، سنة: ٢٠٠٨م.
١٥- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادى، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة، سنة: ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م.
١٦- تاج العروس لمرتضى الزبيدي، ط: دار الهداية.
١٧- تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٥م.
١٨- التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، ط: الدار التونسية- تونس، سنة: ١٩٨٤م.
١٩- تطور المنهج المقاصدي عند المعاصرين للدكتور طه جابر العلواني، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي- هرندن- الولايات المتحدة الأمريكية، الأولى، سنة: ٢٠١١م.
٢٠- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم للدكتور عبد العظيم المطعني، ط: مكتبة وهبة- القاهرة، الثالثة، سنة: ٢٠١١م.
٢١- تفسير الشعراوي لمحمد متولي الشعراوي، ط: مطابع أخبار اليوم- القاهرة، سنة: ١٩٩٧م.

٢٢- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة، الأولى، سنة: ١٩٩٧م.
٢٣- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الثالثة، سنة: ١٤٢٠ هـ.
٢٤- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: ١٩٩٠م.
٢٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور محمد سيد طنطاوي، ط: دار نهضة مصر- القاهرة، الأولى، سنة: ١٩٩٧- ١٩٩٨م.
٢٦- تفسير مقاتل بن سليمان، ط: مؤسسة التاريخ العربي- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٢م.
٢٧- تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ط: دار إحياء التراث العربي، سنة: ١٩٦٧م.
٢٨- التوحيد والتزكية والعمران للدكتور طه جابر العلواني، ط: دار الهادي- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٣م.
٢٩- التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف المناوي، ط: عالم الكتب- القاهرة، الأولى، سنة: ١٩٩٠م.
٣٠- جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، سنة: ٢٠٠٠م.
٣١- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ط: دار الكتب المصرية – القاهرة، الثانية، سنة: ١٩٦٤م.
٣٢- الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، ط: دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد الدكن – الهند، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الأولى، سنة: ١٩٥٢م.

٣٣- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠١م.
٣٤- الحضارة لحسين مؤنس، ط: عالم المعرفة، الثانية، عدد سبتمبر، سنة: ١٩٩٨م.
٣٥- دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدي، ط: دار الفكر- بيروت.
٣٦- الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط: دار الفكر - بيروت.
٣٧- الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، ط: دار السلام- القاهرة، الأولى، سنة: ٢٠٠٧م.
٣٨- روح البيان لأبي الفداء إسماعيل حقي، ط: دار الفكر- بيروت.
٣٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٥هـ.
٤٠- زهرة التفاسير لأبي زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى ، ط: دار الفكر العربي.
٤١- سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه، ط: دار إحياء الكتب العربية- فيصل عيسى البابي الحلبي- القاهرة.
٤٢- سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ط: دار ابن حزم- بيروت، الأولى، سنة:١٩٩٧م.
٤٣- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سوره، ط: مصطفى الحلبي- القاهرة، الأولى، سنة: ١٩٦٢م.

٤٤- شرح تنقيح الفصول لشهاب الدين القرافي، ط: شركة الطباعة الفنية المتحدة، الأولى، سنة: ١٩٧٣م.
٤٥- شرح مختصر الروضة لنجم الدين الطوفي، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٩٨٧م.
٤٦- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، ط: دار العلم للملايين- بيروت، الرابعة، سنة: ١٩٨٧م.
٤٧- صحيح ابن حبان، ط: دار الرسالة- بيروت، الثانية، سنة: ١٩٩٣م.
٤٨- صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط: المطبعة السلفية- القاهرة، الأولى، سنة: ١٤٠٣هـ.
٤٩- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله) لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٥٠- العظمة لأبِي الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، دار العاصمة- الرياض، الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ.
٥١- العقيدة الدينية وأهميتها في حياة الإنسان للدكتور محمود حمدي زقزوق، ط: مجلة الأزهر الشريف، عدد شهر رجب، سنة: ١٤١٥هـ.
٥٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: دار المعرفة- بيروت، سنة: ١٣٧٩هـ.
٥٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد بن علي الشوكاني، ط: دار الكلم الطيب- دمشق، بيروت، الثانية، سنة: ١٩٩٨م.

٥٤- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن الحسن بن العربيّ الفاسي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٥م.
٥٥- القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت، الثامنة، سنة: ٢٠٠٥م.
٥٦- القصص القرآنية دراسة ومعطيات وأهداف لجعفر السبحاني، ط: مؤسسة الإمام الصادق- قم- إيران، الأولى، سنة: ١٤٢٧هـ.
٥٧- القيم الإنسانية في العمار الإسلامية للباحث مصطفى عبد الحميد محمد، رسالة ماجستير بكلية الهندسة- جامعة أسيوط.
٥٨- الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، ط: دار الكتاب العربي- بيروت، الثالثة، ١٤٠٧هـ.
٥٩- كشف المشكل من حديث الصحيحين لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط: دار الوطن الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي – الرياض.
٦٠- لسان العرب لابن منظور، ط: دار صادر – بيروت، الثالثة، سنة: ١٤١٤هـ.
٦١- لمحات نفسية في القرآن الكريم للدكتور عبد الحميد محمد الهاشمي، ط: مجلة دعوة الحق- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- الرباط، العدد: ١١، سنة: ١٤٠٢هـ.
٦٢- محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع للشيخ محمد الغزالي، ط: دار نهضة مصر- القاهرة، الأولى.
٦٣- المحاور الخمسة للقرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي ، ط: دار الشروق- القاهرة.

٦٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٤٢٢ هـ.
٦٥- المحصول لأبي بكر بن العربي، ط: دار البيارق -عمان، الأولى: سنة: ١٩٩٩م.
٦٦- المحصول لفخر الدين الرازي، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي، ط: دار الأرقم بن أبي الأرقم -بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٦هـ.
٦٧- المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده ٧٥/٥، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٠م
٦٨- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٠م.
٦٩- المستصفى في أصول الفقه لأبي حامد الغزالي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٣م.
٧٠- مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، ط: المكتبة العتيقة- تونس، ودار التراث- القاهرة.
٧١- معجم المصطلحات الشرعية لمجموعة من العلماء، ط: مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية- المملكة العربية السعودية، الثانية، سنة: ٢٠١٧م.
٧٢- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، ط: دار الفكر..
٧٣- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ط: دار القلم- دمشق، والدار الشامية- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٢هـ.
٧٤- مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر ابن عاشور ، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، سنة: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٧٥- مقاصد الشريعة ومكارمها لعلال الفاسي، ط: دار الغرب الإسلامي، الخامسة، سنة: ١٩٩٣م.
٧٦- مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند المعاصرين للدكتور ماهر حصوة، بحث نشر بمجلة الفكر الإسلامي المعاصر، العدد ٨٩، سنة: ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.
٧٧- مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، ط: دار الفكر- بيروت، الثانية، سنة: ١٩٨٨م.
٧٨- مقدمة مجلة الفكر الإسلامي المعاصر للدكتور فتحي حسن ملكاوي وآخرين، العدد ٨٩، سنة: ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.
٧٩- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج لمحيي الدين يحيى بن شرف النووي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الثانية، سنة: ١٣٩٢هـ.
٨٠- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ط: ط: دار الفكر.
٨١- منهج القرآن الكريم في بيان الأحكام الشرعية للدكتور صبري منصور صيام، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، العدد: الثلاثون، سنة: ٢٠١٣م.
٨٢- الموافقات في أصول الشريعة لإبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي، ط: دار ابن عفان، الأولى، سنة: ١٩٩٧م.
٨٣- موسوعة العقاد الإسلامية لعباس محمود العقاد، ط: دار الفكر العربي- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٧١م.
٨٤- موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة لنخبة من العلماء، ط: المجلس الأعلى للشون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف المصرية، الإصدار الأول، سنة: ٢٠٠٠م.

٨٥- ميزان الاعتدال في نقد الرجال لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، ط: دار المعرفة- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٦٣م.
٨٦- ميزان العمل لأبي حامد الغزالي، ط: دار المعارف- مصر، الأولى، سنة: ١٩٦٤م.
٨٧- الميزان في تفسير القرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي، ط: مؤسسة الأعلى للمطبوعات- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٧م.
٨٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.
٨٩- النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي، ط: دار الكتب العلمية، ومؤسسة الكتب الثقافية- بيروت
٩٠- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام لمحمد صديق خان القِنَّوجي، دار الكتب العلمية- بيروت، سنة: ٢٠٠٣م.
٩١- الوحي والإنسان- قراءة معرفية لمحمد السيد الجليند، ط: دار قباء- القاهرة.